فصل من رواية «سراب عفّان»

نائل عمران

جبرا ابراهيم جبرا

يوم بدأت بكتابة «الدخول في المرايا»، كنت في حالة يائسة من كآبة أخذت بخناقي أشهراً متتالية بعد موت سهام، وأنا أرقب نفسي وهي تنخبّط في الطين، أريد إنقاذها ولا أستطيع.

وجاءت فجأة الكلمات الأولى من «الدخول في المرايا»، فشعرت كأنني كنت طَوال تلك الأشهر في غرفة مظلمة محكمة الإغلاق، وإذا بشق ينفتح في أعلى الجدار، ويتسرّب منه شعاع سأتشبّث به، فيرفعني بشكل ما إلى حيث يتسع الشقّ ويغدو كوّة أستطيع النفاذ منها إلى الفضاء من جديد.

وكلّما استمررت بالكتابة استمرّ الشقّ بالاتّساع، ودفق عليّ مزيد من الشعاع. حتى تنفّسي صار أكثر انتظاماً، وعيناي أحدّ بصراً لما حولي. لعلّني غدوت أيضاً أشدّ نسياناً، أو أن ذاكرتي باتت تنتقي ما تقذفه إلى وعيي على نحو يقلّل الحزن، ويزيد اللامبالاة، وربّما يزيد التحرّك في اتجاه لذةٍ لم أستطع تحديدها، بل ما همّني أن أحدّدها.

وكان الدخول في المرايا «فعلاً» حركياً، حيث الأشكال تتناظر، وتتكسّر، وتتماوج، تتلاشى وتتجسّد، وفق إيقاع كانت كلماتي توجده، أكاد أزعم دون إرادة مني. واتّسع الشقّ في أعلى الحائط، وتهدّمت الأجزاء المجاورة له يوماً بعد آخر، ولم يبق لي إلاّ أن أخطو فوق الحجارة والردم، وأنطلق. وكنت قد كتبت من الرواية عندئذ معظمها، ولم يبقَ عليّ إلاّ أن أنهيها بصورة ما، جاعلاً النهاية «مفتوحة» بالطبع، تأكيداً على انتصاري على تلك الكآبة التي كادت تدمّرني وتقطّع علاقاتي بالناس والأشياء، كما فعلت في فترة عصيبة من حياتي في مطلع الشباب.

وكنت أعلم أن «الدخول في المرايا»، كرواية، أقرب إلى حلم يقظة فرضته عليّ قوّة كامنة في أغوار وعيي. واتضح لي أنه كان لا بدّ لي من أن أنسى وفاة زوجتي، أو أن أرضى بوفاتها قضاءً لا مردّ له. فكأنّني طوال تلك الأشهر السوداء الأولى كنت قد دُفنت معها، أو كأنّني رحت أرفض الحياة لأكون جديراً بحبّها حتى الموت. فإذا كان البعض مسلوب الإرادة في حالة كهذه، فإنني كنت، على العكس، أريد بإصرار أن أكون في حالة أشبه بالموت، مصمِّماً على رفض الحياة، ما دامت سهام قد حرمت الحق في أن تحظى من الحياة بأكثر من ست وثلاثين سنة، قضت الاثنتين الأخيرتين منها في مجالدة يائسة مع المرض. ورأيتها وهي تفقد وهجها شيئاً فشيئاً، ويتخافت نورها ووعيها، حتى الانطفاء والظلمة الأخيرة.

وغسّان، بسنواته السبع عندئذ، لم يفقه ما الذي حصل بالضبط، رغم بكائه الكثير في الأيام الأولى. وكنت محتاراً بين أن أجعله ينسى فجيعته بأمّه، وبين التأكيد على ما فقده من حبّ وحنان بفقدانها. وحمدت الله على أنني كنت قد أقنعت سهام بالاكتفاء بغسّان طفلاً وحيداً، وإذا هو، بوحدانيته، يصبح ملاذي ومنقذي في ساعات الحزن، وهمّي وقلقي في ساعات التأمّل في مصيره بدون أمّ تعنى به تلك العناية التي ما كنت أستطيع التعويض عنها رغم كل ما حاولت. ولعلّ أختي سالمة، الأصغر مني، وجدت في احتضانه منذ لحظة غياب سهام تعويضاً عن بقائها عانساً تقارب يومئذ الأربعين، فتولّت أمر غسّان بحرارة وعطف وتفانٍ جعلت لحياتها ذلك المعنى الإضافي الذي جدّد لها الرونق في أيامٍ كانت ستكون بدون غسّان رتيبة كامدة. ورأيت سالمة تنتعش بتربية ولدي وكأنه ولدها، وتأخذه في عطله المدرسية ليقيم مع أخي وائل وأولاده الكُثر في دارنا القديمة، مع بقائها في عملها مديرة في وزارة التربية.

وقد أصرّت أختي، في السنتين الأوليين بشكل خاص، على تحريري من مسؤولية العناية اليومية بشؤون غسّان، ولو أنها لم تفلح في إقناعي بترك البيت الذي كنا أنا وسهام قد فرغنا من بنائه قبل وفاتها بأربع سنوات. ولم يكن من السهل عليّ أن أهجر الغرف التي خطّطناها أنا وسهام معاً، ثم أثّثناها على مهل وعلى طريقتنا ـ على قلّة قطع الأثاث التي اخترناها، وفق فلسفتنا الجمالية في عدم ملء فضاء الحجرات بتراكم من الكراسي والكنبات والموائد والخزائن التي من شأن معظم الناس أن يزحموا بيوتهم بها. وفي بقائي وحدي في تلك الغرف، كنت أعايش سهام وكأنها لم تغب عني يوماً، ولن تغيب.

حتى ثيابها أبقيتها في الدولاب الكبير في غرفة نومنا مع ثيابي، وأبقيت زجاجات عطرها وأدوات تجميلها على طاولة التواليت أشهراً عديدة، رغم اعتراض سالمة واحتجاجها على هذه المغالاة في الحزن والتشبّث بعزيزٍ مضى، قائلة إن في ذلك تمرّداً على مشيئة الله الذي ليس لنا أن نفهم حكمته في ما يريده من مصير. غير أنني آثرت أن أبقى مع سهام في وحدتي، ولم أكتفِ بجعل «البورتريه» الزيتية الكبيرة التي كان رسمها لزوجتي صديقي الفنّان ضياء اسماعيل، تحتلّ الصدر من غرفة الجلوس، بل طلبت إلى النحّات نزار حيدر أن يصنع لي تمثالاً لرأسها، اعتماداً على صور فوتوغرافية وضعتها تحت تصرّفه، إضافةً إلى معرفته الشخصية لها أيام زواجنا الأولى. فنحت لها في الرخام الأبيض رأساً بديعاً، أكبر من الحجم الطبيعي بقليل، وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة، ولكنها ابتسامة تذوب في حزن غامض. وجعلت التمثال على قاعدة عمودية من رخام أسود مقابل فراشي بالضبط؛ فكان وجهها آخر ما أرى قبل أن أطفىء النور عند نومي، وأول ما أرى عندما أستيقظ في الصباح، وقد سقط عليه شيء من النور المتسلّل من بين الستائر المسدلة، فأكاد أحسّ أن سهام تتحرّك، وتقبل عليّ، وتحثّني على النهوض إن أنا تأخّرت في الفراش. وأشعر دوماً أن الحوار بيننا مستمرّ: يتجدّد، ويعلو، ويهبط، بأصوات أسمعها في داخل رأسي، ويخيّل إليّ أن الرخام يتآمر معي على قوّة مجهولة حاقدة تريد تحطيمي، فيمدّني بالمزيد من قدرة المقاومة. بيد أنني كنت أشعر أيضاً، في بعض الأحايين، مع تلك الابتسامة المخضّلة بالحزن، أن الرخام ربّما كان يتآمر عليّ، وأنا لا أفهم. وكثيراً ما قبضت على نفسي متلبّساً باستسلام مجنون لصقيع الخدّين الرخاميّين وهما بين كفيّ، وشفتاي اللاهبتان تحاولان إشاعة شيء من الحرارة في الشفتين الباردتين القاسيتين.

ومن هنا كان دخولي في المرايا أمراً محتّماً، بعد مرور أكثر من سنتين على صدور روايتي الأخيرة. أي أن تجربتي اليوميّة مع حجر أريد نفخ الحياة فيه، تعلّلاً، حزناً، فرحاً (مهما تكن العواطف التي لم تهجع في صدري، والأخيلة التي لم تستكن في رأسي)، كانت تدفعني دفعاً نحو البعيد، نحو نكران الواقع اليوميّ الذي بات يثقل صدري ويعوق تنفّسي. هل كان ذلك عشقاً للموت، ولجوءاً إلى حلم يخرج بي من الحياة التي أعرفها إلى حياةٍ يصنعها هواي على غير ما يتوقّع إنسان؟ هل كانت تلك هزيمة إزاء الحدث الآني، إزاء الناس الذين أحتكّ بهم في كل ساعة، كأنني أحمل قوقعة أنسحب إليها من ضوضاء البشر، ومطالبهم، وقسوتهم، وفي قوقعتي أعيد تركيب بقائي من خلال الرؤى، ثمّ من خلال الكلمات التي تأسر تلك الرؤى على طريقتي؟

هذا كلّه خطر ببالي وأنا أقتحم «المرايا». ولكن مع مرور الأيام، تبيّن لي أنني كنت وأنا أكتب إنما أسير بالضبط على عكس الخطّ الذي تصوّرته في البداية. فأنا، في كلّ مرة أدخل فيها طوايا التناظرات والتكسّرات، والنقائض والأصداء، واستجلاب البعيد والمستحيل، إنما أخرج من القوقعة البائسة التي أُرغمت على السقوط فيها، لكي ألتقي البشر وجهاً لوجه، ألتقي ضوضاءهم، مطالبهم، قسوتهم، وهل أقول أيضاً، بين حين وحين، روعتهم؟ وأعمالي القانونية، التي ما كان لي أن أتهاون فيها مهما كانت شواغلي النفسيّة، كانت تذكّرني بذلك كل يوم. ولقد تأكّد لي يومئذٍ أنني، مهما فعلت وفكّرت وكتبت، شئت أم أبيت، جزء من تاريخ ملعون: ملعون بهزائمه ومآسيه، بقدر ما هو ملعون بانتصاراته وأفراحه، تتحقّق منجزاته قسراً عنه، وتتحقّق تدميراته بإرادته وبرعونة الحمقى. وبقدر ما يبتهل الناس إلى الله قائلين: ربِّ يسّر ولا تعسّر، وجدت أن القاعدة التي رسموها في أذهانهم لمجتمعهم هي بالضبط: العسر، لا اليسر. حتى جاءتني لحظات كنت أتخيّل فيها أن على كل منعطف في المدينة، وفوق المدخل من كل عمارة، قد كُتب: عَسِّر، لا تيسِّر. أينما تلفّتّ بدا لي أنني أسمع: عسِّر، لا تيسِّر. أسمعها من المؤسسات، من القوانين، من التعليمات، من المسؤولين، من الموظفين، صغارهم وكبارهم، من كل من أحتكّ به ولا أحتكّ.

واشتدّ بي الإحساس بأنني قضيت عمري هباءً بدراسة القانون، ونيل الدكتوراه فيه، وتدريسه لفترة في كلية الحقوق، ثمّ العمل مستشاراً حقوقياً لأكثر من مؤسسة، وبعد ذلك العمل مستقلاً في المحاماة، لأنني إنما ساهمت بنصيبي أيضاً في تبرير المحظورات والزيادة منها، ولم أعمل إلّا في أضيق هامش إنسانيّ ممكن، ضمن التركيبة الاجتماعية التي تتراصّ بالمحرّمات، لتحقيق النجاة للبعض من ثقلها الساحق. لقد رأيتني، وأنا أتخطّى عتبة الخمسين من عمري، دولاباً صغيراً آخر من دواليب التاريخ التي ما زالت دائبة على صنع زمنٍ لا تتناسل فيه إلّا الأزمات والفواجع والأحزان.

ولم تكن الدراسات القانونية العديدة التي ألّفتها، وكتبت فيما بينها، عبر أكثر من ربع قرن من الزمن، رواياتي الخمس - قبل «المرايا» - إلّا محاولات مني تتكرّر في استجلاء هذه الناحية من السلوك البشري، سواء من خلال التاريخ كما أفهمه، أو من خلال تنامي المجتمع كما أراه، أو من خلال تداخل التاريخ والمجتمع معاً دون هوادة وباستمرار. وجاءت وفاة غاليتي سهام لتوغل بي بعيداً في متاهة الشكّ في قيمة ذلك كلّه، فأنظر إلى كل ما «أنجزت» من موقعٍ، أدركت أنه موقعي في الطين الذي رحت أتخبّط فيه، غريقاً لا يغرق، وناجياً لا ينجو - اللهمّ إلّا الآن، وباقتحامٍ لا مفرّ منه لعمل فنيٍ جديد. وجاءت «المرايا»، فيما راح تمثال سهام الرخاميّ الأبيض يرمقني من على قاعدته السوداء، مبتسماً، مستفزّاً، يحثّني وملؤه الحبّ والحيرة، ويحثّني وملؤه الخشية عليّ ممّا قد أضيع فيه من أفكار وأخيلة.

وخطر لي أن أباطرة التواريخ القديمة، إذا فقد أحدهم عزيزاً يعشقه، أقام له ضريحاً فسيحاً، أو بنى مدينة أطلق عليها اسم معشوقه. وهل لي أن آمر بإقامة ضريح فسيح في مدينة تكاد لا تتّسع لقبورها البائسة التي تتزاحم الأضداد فيها (رحمك الله يا أبا العلاء!)، أو آمر ببناء مدينة على الرمال لا تنجب عبقرياً واحداً، ولا تتناسل فيها سوى الضباع؟ أم أحذو حذو الفراعنة القدماء، فأحتفظ في قبو مظلم بجسد حبيبتي محنّطاً، وأضع على قالب محيّاها قناعاً من ذهب، أجعله على وجهها، فأخلّد جمالها وموتها معاً؟

لا الذهب ضمن طاقتي، ولا إقامة الأضرحة وبناء المدن. وما ضمن طاقتي إلّا الكلمات. فلأسخّر الكلمات إذن، ولأكتب لذكرى من أحبّ كتاباً متفرّداً، فذّاً، مثلها، كتاباً لم يكتب مثله أحد.

لم يكتب مثله أحد! ما أروع الغرور! ولكنه غرور كان لا بدّ منه ولو في البداية، لكي أضع نصب عينيّ هدفاً يصعب إدراكه. وعليّ أن أتخيّل في نفسي قدرات أبعد مما حسبت فيما مضى، عزماً كان ذلك مني أو غروراً. وسرعان ما تبيّنت أنني، مرّة أخرى، إنما أنحرف من فيض إنائي الذي قد طفح. وأن العزم والغرور كليهما لا شأن لهما في ما يتقاذف داخلي كلّ يوم، كل ساعة. عليّ أن أتلقّف هذه الشظايا، ولتكن ما تكون. ولم يكن الدخول في المرايا إلّا الدخول في منطقة تدوّم فيها صور الوقائع وصور الأحلام معاً، وقد دفعَتْ بها إلى حومة الروح أيامُ اللذائذ والعذابات بلهفاتها وخيباتها المتلاحقة في زمن ملعون.

لقد أردت منذ أول كلمة كتبتها أن أرى في نهاية سهام عودةً إلى بدايةٍ في منجىً من كلّ هذا الذي تحياه النفس مرغمة ساعة بعد ساعة، إلى حيث تتحرّر من كل جور، وكل قسوة، وكل قبح، طوباوية من دون خجل، وإن تكن القيامة منها على مرمى البصر، أو أقرب:

«وهناك سقطت، وفي سقوطها كان ثمّة ما يكاد لا يُسمع من تغريد طيور نائية، وصوت البحر ناعم غائم كما عَرَفَتْه قبل سنين، ولغطٌ لا يتّضح لسياسيين ووعّاظ مزعومين لا يكلّون عن الكلام يتلاشى في أذنيها. سقطت، واستمرّ سقوطها في نفق عميق هبط بها إلى قاع حبّها وذكرياتها المعتمة، حيث تتحسّس الرغبة في البقاء إلى الأبد، واكتشافِ معدن حياتها من جديد، لتصنع منه أعجوبةً جديدة. ما أعذب أن تنتهي هكذا، وبانتهائها تجد طريقاً يعود بها إلى الحياة، إلى مكان حياتها الذي وحده يسعفها في صنع أعجوبتها. ورأت يديه، بأصابعها الطويلة المرهفة، تتحرّكان عبر ذهنها، وشفتيه تتحرّكان بأيّ جمالٍ من الكلمات! ولكنها ما زالت تسقط على إيقاع انسيابيّ لا ينتهي لأصوات كثيرة من الطبيعة والناس. يالله، من هذا الذي يناديها من خلال هذه الموسيقى كلها؟ لم تفهم كلمة واحدة مما سمعت، ولكنها أدركت معاني عديدة متباينة، وباتت تعلم أن لها هناك لقاءً أخيراً، راحة أخيرة، في قلب عاشقها الذي راح ينادي وينادي وهي مستمرّة في سقوطها في نفق السنين عودةً إلى الحياة، الحياة، الحياة...»

إنني اليوم أرى ما لم أره يومئذ بهذا الوضوح، وهو الوضوح الذي أتى به ما كتبت لاحقاً من حكايتي مع المرايا. أنا لم أكن أتحدّث عن سهام وحدها، رغم ذلك الحبّ كله، بقدر ما كنت أتحدّث عن طيفٍ ما عليّ أن أمسك به وأجعله يتجسّد، لأستكنه حقيقته. أردت أن أغرز أظافري في ذراعيه، وأدفن فمي في شعره. أردت أن أراه يتجسّد كل يوم في شكل جديد، ويستفزّني بانصياعه وتمنّعه، بتصرّفه معي ملاكاً وشيطاناً، وتكون الأعجوبة التي يصنعها أنه ينشطر ويتعدّد، ثمّ يلتئم ويتوحّد، ويخترق بي الزمن الملعون رغم كل جور، وكل قسوة، وكل قبح. ومن خلال المرايا المحدّبة والمقعّرة، من خلال الوجوه الدميمة والأجسام المستطيلة والمقزّمة، يتسلّل الطيف المجسّد معي بقدّه الذي لا يمسّه تشويه، ووجهه الناضح دوماً بروعته، ليبلغ بي ما لم يكن لولاه ليتحقّق لي من تراكيب وتهاويل.

الرجل الذي راح يسافر في أقاليم الليل حتى الأبد

كانت الشمس قد غاصت في الأفق بحقد متعمّد، وتركتني في الظلام. ولم تكن ثمّة دقيقة واحدة من أصيل، كأنّ قوّة ما أطفأت النور في غرفة دخلتُها للتوّ، بعد أن رتّبت الأمر بحيث لا يكون للغرفة أية نافذة. وخيل إليّ أن قفلاً بعد قفل راح يطقّ وهو ينغلق داخل دماغي.

ولكنني كنت أعلم أنني تحت شجرة. وبوسعي أن أستشعر الأوراق اليابسة وقد انتثرت حولي، وتحت قدميّ. ولعلّ الأشجار

كانت كثيرة حولي. وحواسّي تستجيب للمس أوراق تتماوج وتتقصّف. وعندما مددت ذراعي لأتبيّن إن كان الذي بجواري هو جذع شجرة، أحسست كأنني أخرجت ذراعي من نافذة مفتوحة إلى الهواء البارد، ثم سقطت مرتخية على ركام من الأوراق اليابسة. وخيّل إليّ أن المزيد من الأقفال راح يطقّ وينغلق في رأسي.

وفي حلكة الظلام، كان صوت يقول: «في أيام شبابك أثمت مع فتيات عذارى، ثم هجرتهنّ أو هجرنك لكل مستطرق قادم. منهنّ من تزوّجت وأنجبت ونسيتك، ومنهنّ من لم تتزوّج وبقيت تلاحق ظلال أهوائها إلى أن ذبلت وهرمت، ومنهنّ من عاشت ولا عيش الأميرات، وتحاول كل يوم أن تخلّص جسدها من ذكراك، وتخفق... أتذكر هذه؟ وهذه؟... وهذه؟...»

امرأة بعد أخرى كانت تتقدّم وتتضح صورتها، ثم تتلاشى في الظلام. ولم أكن واثقاً من أنني أعرفهن، أو أنني من قبل رأيتهن. ولكن كل واحدة منهن تتقدّم نحوي كأنها تعرفني، ثم يغيم وجهها وقوامها، وتختفي لتحلّ أخرى مكانها.

وتقدّمت امرأة نحيفة هيفاء طويلة الشعر، يزيد إرسال شعرها من الإيحاء بامتداد قوامها، وبانت عيناها، وهما تتوقّدان بجمال وحشيّ، وهما في حالة ضراعة، أو ألم. وقفتْ لحظةً أو لحظتين، مرتخية الذراعين، وبغتة انطلقت في حركة مضطربة، مذعورة، كأنها تبحث عن مهرب، طريدة أطبق عليها المطاردون. ثم ركضت، واختفت.

ولم يكن ثمّة إلّا الظلام، وخشخشة الأوراق الميّتة كلّما تحرّكت يدي، أو قدمي. وجاءني الصوت من جديد، هامساً هذه المرة: «لديّ هنا عصفور صغير، لك أن تقول إنه بلبل، سمعتَ تغريده ذات يوم وضحكت، نعم، ضحكت. ولماذا ضحكت؟ لأنه أراد أن يعبّر عن عاطفة أكبر من تجربته. هكذا أنت ظننت. ولم تعلم أنه لم يكن يروي إلّا عن مصيرك أنت، وحزنك. ولكنك حسبت أنه إنما يغني عن حزنه الصغير هو... أتذكر؟»

قلت: «لا أذكر، لا أذكر.»

وإذا فضاء أزرق ينشقّ عنه الظلام، فضاء تملأه الطيور، وهي تتصايح وتنعق، وتخنق الجوّ بأسرابها، وتهبط كالسهام المارقة إلى ما فوق رأسي، ثم ترتفع وتحلّق متنائية وتتناءى معها ضوضاؤها حتى تكاد لا تُسمع، وإذا هي تهبط بقوّة مرّة واحدة، بقصف كقصف الصنوج، وتحطّ على الأشجار، فتنحني الأشجار تحت وقرها وتمسّ فروعها الأرض، ثم ترتفع مرّة أخرى، وتتهاطل عنها أوراقها كالمطر.

وحلّقت الطيور بعيداً، حتى تلاشت، وتلاشت أصواتها. وهبط صمت عميق ثقيل على الغابة المظلمة.

أردت أن أسمع صوتاً. أردت أن أرى شيئاً. ولكن الصمت والظلام كانا كثيفين، قاتلين. وتحرّكت بجسمي كيفما اتفق، نفضت ذراعيّ، التويت بجذعي، أدرت وجهي يميناً وشمالاً، وظننت أنني أسمع لهاثاً صادراً عن حنجرتي، لهاثاً خنيقاً، متقطّعاً، أردت أن أكفّ عنه، ولكنني أحسست أنه لا يصدر عنّي، بل عن مكان ما في الظلام. إنه لهاث أذكره، أذكره جيّداً، يصدر عن حنجرة أعرفها. كنت في زمن مضى أمرّغ فمي على تلك الحنجرة، وأشعر بشفتيّ ذبذبات ما تندّ عنه من تأوّه خافق ـ إنه تأوّه حبّ، لهاث عشق.

ووقع فمي على الفم اللاهث، وأدركت أنها أخيراً، أخيراً، قد عادت من قلب الظلام. فأمسكت بكتفيها، وهززتها بعنف قائلاً: «لن تتلاشي هذه المرّة! لن تتلاشي! هل نحن في الجحيم، أم ماذا؟»

وتوقّف لهاثها لحظة، ثم قالت: «بل نحن في غرفتك. ألا ترى ذلك التمثال الذي يبتسم لك؟ ألا ترى المرايا حولك؟ ألا تراني في كلٍّ منها أومىء إليك؟»

ورأيت ذلك كله حقّاً. فنهضنا معاً، واقتادتني إلى إحدى المرايا، وخطونا من خلالها كأنها الفضاء، لنرى أمامنا درباً معبّداً بالحصى، يتلوّى من خلال التلال الخضر، هابطاً باتجاه البحر.

ونزلنا نحو الصخور وهي تتلقّى انقذافات البحر وزبده، وقد ركن في مضيق منها قارب يعلو وينخفض مع خفقان الموج. زورق له محرّك، ولكنه يكاد يغوص في مكانه لكثرة ما حطّ فيه من ماء...

ومن كهف قريب خرج رجل أسود طويل القامة، يتمشّى على مهل، عارياً إلّا من وزرة حمراء حول وسطه، وقال، مشيراً إلى الزورق: «إن كنتما مستعدّين للإبحار، هيّأته لكما في نصف ساعة. نصف ساعة فقط.»

* * *

كان نهاراً شتائياً، غير أنه مليء بالشمس، بعد أن توقّفت أمطار الليلة السابقة. وقد جاءت الأمطار مصحوبة بمراسيم الروعة والمهابة التي تليق بأمطار طال ترقّبها بعد أسابيع من الجفاف. جاءت مع البروق والرعود التي هزّت المدينة هزّاً. وكنت واثقاً من أننا في الصباح، إذا توقّفت الأمطار، سنسمع أخباراً عن رجال فاجأهم عشق الطبيعة الحارق وهم يدلجون في أرباض المدينة، وحوّلهم بصواعقه إلى أشكال من الفحم.

جاء النهار صاحياً، يتلألأ، وقد نضت كل شجرة عنها غبارها، وراحت خضرتها تتألّق. وبدت حتى البيوت العتيقة وكأنّها قد استعادت نضارةً مفقودة، وتجدّدت.

عدت من مكتبي إلى الدار حوالي الثانية بعد الظهر، ولي شهيّة هائلة للطعام. وتقصّدت أن أتناول غدائي وأنا أواجه نافذة تطلّ

على حديقة الدار التي تتميّز بكثرة ما فيها من أشجار النارنج، والعديد من حبّات النارنج ما زال يتوهّج بين أوراقها القشيبة الآن، كقناديل من ذهب.

قبيل الرابعة خرجت إلى الطريق، وبي نشاط غريب، وإحساس يوحي إليّ بأن أسير ساعات طويلة، مع أنني أعلم أن الشمس ستغيب بعد ساعة أو أكثر بقليل. أردت أن أعانق الفضاء، أن أشرب الضوء المزرورق المشعشع كما لو أنني أشرب خمراً من كأس يفيض منها الحَبَب. كانت تلك إحدى اللحظات القليلة التي نسيت فيها كل شيء، كل ماضٍ وحاضر، فيما عدا ذلك الوهج الآنيّ اللذيذ الذي لا ينبىء إلّا عن نفسه ـ وربّما ينبىء أيضاً عن انعكاس في داخلي يحرّرني لا من ذوات الآخرين فحسب، بل من ذاتي أنا أيضاً.

كانت السماء صاحيةً لا حدود لأبعادها، والشمس تتقافز على أعالي الأشجار والمنازل، وانعكاساتها ـ وقد جنحت إلى الغروب ـ تتواتر في برك الماء المتجمّع هنا وهناك طوال الطريق، كالشرارات الحمراء الصغيرة.

والسيارات تمرّ بي ولكنها، على عكس عادتها، لا تسرع كثيراً. وهناك فتيان وفتيات يسرعون أو يتباطأون، ولكنهم دائماً يتصايحون، وشيء كالضحك يملأ الجو. حتى الكلب السائب الذي مرّ بي بدا وكأنه يستمتع بمرأى الدنيا، ولن ينبح على أحد.

سيارة قادمة من خلفي توقّفت بجانبي، لم أعرها اهتماماً، واستمررت في السير. غير أن من فيها زمّر قليلاً، فانتبهت. ونظرت إلى الخلف فرأيت من خلال الزجاج الأمامي وجهاً جميلاً يضحك لي، ولم أكن قد رأيته منذ زمن ـ منذ سنة أو أكثر. فاقتربت من جانب السيارة، وأنزلت صاحبة الوجه الجميل زجاج النافذة بسرعة، وهي تصيح: «نائل! سارح، سارح كالعادة!»

انحنيت لأكون على مستوى وجهها، ووجه زوجها الجالس على الجانب الآخر منها وراء المقود، وقلت: «وأنت رائعة، رائعة كالعادة!»

في تلك اللحظة الفائضة بنشوة الطبيعة، كنت سأقول ذلك لأية امرأة توقفني في الطريق. فكيف إذا كانت المرأة هي تالة، تالة الظاهر، دون غيرها؟

قال شريف الترك من الجانب الآخر: «هيّا اصعد، فنوصلك أينما تريد.»

قلت: «لا، شكراً. أنا طالع أتمشّى. من يركب سيارة في مثل هذه الساعة الرائعة؟»

أجابت تالة مستضحكة: «أنا وشريف، ألا ترى؟»

فاقترحت: «لماذا لا تتركان السيارة هنا، وتتمشيان معي؟»

وتمنّيت فعلاً لو أنها يترجّلان. غير أن شريف قال: «مع الأسف، نحن على موعد. لماذا لا نراك هذه الأيام؟»

ـ يظهر أننا صرنا لا نلتقي إلّا في الأماكن المستحيلة!

فقالت تالة، وضحكتها تتجدّد: «الحقّ عليك. تلفن لنا، ولو مرّة في العمر...»

ـ سأفعل.

وهتف شريف: «سبعة سبعة، واحد واحد، أربعة ستة صفر. تذكّر ٤٦٠، والبقية سهلة.»

وضحكت من أعماق حنجرتي: «سأتذكّر! طبعاً سأتذكّر!» كأنّني لم أكن أعرف الرقم منذ ما قبل زواجها، وانتقال شريف للسكنى مع أهل تالة بسبب ظروفه الاقتصادية يومئذ. حتى السيارة كانت في الأصل سيارة تالة. ورغماً عن مشيئتي فإني أتذكّر الكثير ممّا يعرفه شريف، وممّا قد لا يعرفه، عن تالة صديقة سهام ورفيقة عمرها. وعندما تحرّكت السيارة وابتعدت، تخيّلت تالة كحمامة حملتها ذات يوم بين يديّ، ثم رفعتها بأعلى ما تستطيع ذراعاي، وأطلقتها في الفضاء، لكي أتزوّج صديقتها، وتتحرّر هي في خياراتها.

في تلك البرهة لمحت على الرصيف المقابل رجلاً يلبس معطفاً طويلاً أسود، يمشي على مهل وقد انحنت كتفاه، رغم انتصاب جسمه. وعرفته في الحال. إنه رئيس وزراء سابق، ما خرجت يوماً في مثل هذا الوقت إلى هذا الطريق، إلّا ورأيته يتريّض وحده بالسير على مهل، تحت أشجار الصنوبر المتلاصقة، ناظراً أمامه إلى الأرض، يكاد لا يرى أحداً حوله. أية خواطر تملأ صدره، يستعيدها أو تفرض نفسها عليه، في تلك المشاوير؟ رئيس وزراء سابق ـ ولو لسنة أو أقل... كم رئيساً من هذا القبيل استطاع أن يبقى حيّاً، ليتريّض وحده في العصاري الطويلة، دونما حراسة من أحد، ويعيد تركيب الماضي على رسله، وعلى هواه؟ أم أنه لا يعيد تركيب أيّ ماضٍ، بل يتجنّبه كشيء يؤذيه إذا مدّ يده إليه؟ وإلّا لما اعتاد الناس رؤيته يتمشّى عصر كل يوم، وقد قطع كل صلة ظاهرة له بهم، كأنهم كانوا السبب في رفعه إلى أسمى المناصب، لكيما يوقعوه بعد ذلك في تلك الوحشة الغريبة التي ربّما عذّبته زمناً، ولكنه بات الآن لا يقوى على الحياة بدونها. أمّا أنا فكلّما رأيته وهو يتابع مشواره، والزمن يضيف كل يوم شيئاً إلى انحناءة ظهره، تذكّرت قصيدة لشاعر انكليزي (كيتس؟ شلي؟) يقول فيها ما معناه:

«أين أغاني الأمس؟
آه، أينها؟»

واختلطت في ذهني أغاني الأمس الضائعة ورؤساء الوزراء الضائعون بذكريات تالة وسهام ـ رغم أن الذكريات كانت أشبه بالعصافير التي تهاجر أسراباً في الشتاء وتختفي، لتعود مع الصيف إلى أوكارها العتيدة في النفس. تعود وقد فرّخت عصافير كثيرة أخرى.

قفزت فوق بركة من ماء المطر، وتأمّلت امتداد الطريق المستقيم، وأشجار الصنوبر على جانبيه ما زالت تتألّق، وقد احمرّت السماء عند الأفق حيث انتشرت سحب خفيفة أمام الشمس فتأجّجت حواشيها كالجمر بأشعّة الغروب الوشيك. ولذا فإنني لم أنتبه أول الأمر للشابّ الذي أوقفني بمدّ يده إلى ذراعي لأتوقّف عن السير. فاعتذرت له: «العفو!»

لمحت أن عينيه حمراوان، دامعتان. وقال بحزن: «أما عرفتني، دكتور نائل؟»

عرفت وجهه، ولكنني لم أتذكّر اسمه في تلك اللحظة. فهو رجل أراه مرةً كل شهرين أو ثلاثة، فيحيّي كلانا الآخر عن بعد، ويمشي. قلت: «كيف لا أعرفك؟.. أنت...»

ـ حمّاد.

ـ طبعاً! أراك مضطرباً؟

اختنق صوته بشهقة فجائية، وأخرج منديله بسرعة من جيبه ليمسح دموعه، ثم قال: «أبي...»

ـ ما به؟

ـ جاءني قبل قليل نبأ يقول إنه أعطاك عمره.

ـ كيف؟ أين؟

ـ في عمّان. استلمت البرقية الآن من أبو حسين، صاحب الدكان... سكتة قلبية، تقول البرقية. سقط ميّتاً، في الطريق.

ووضع يده في جيب صدره، وأخرج البرقية، كأنه يخشى أن لا أصدّقه إذا لم يقم الدليل على ما يقول. فقلت له، وأنا أصافحه: «رحمه الله. والبقاء في حياتك يا حمّاد. كلّنا لها...»

فانفجر بكاؤه مجدّداً وهو يقول: «نعم، نعم.» وتركني، وانصرف في الاتجاه المعاكس.

بعد ذلك، وقد وقعت عيني على بناية «الساحة» على بعد خمسمئة متر منّي، قرّرت بدافع فجائي أن أتّجه نحوها لزيارة طلال صالح في مكتبه في الطابق الأعلى من البناية، ولم أكن قد رأيته لأكثر من أسبوعين، وكان من شأنه أن يداوم مساءً في مكتبه، وعنده فرّاش يتقن صنع القهوة التركية التي أحسست في تلك اللحظة أن موعدها قد آن، ولا بدّ منها.

في الظاهر، وفي ذلك السياق العشوائي، ما أبسط ما حدث...

فلو كانت هناك عين تتابعني من مكان ما من الفضاء، لما دُهشت لما رأت، بل لنسبت إلى الأمر تلك الدوافع العادية التي تملأ كل ساعة من تحرّكاتنا اليوميّة: رجل يسير في شارع بشيء من السرعة، كأنه على موعد في مكان قريب. تراه عن بُعدٍ امرأة، وقد خرجت من دكان أرادت أن تشتري منه فستاناً، ثم غيّرت فكرها. تباغَت المرأة، رغم بعدها، لرؤية الرجل. والرجل مستمرّ في سيره. تسرع المرأة في إثره، وهو لا يدري بها. ولكن كعبها العالي لا يتيح لها ما يكفي من سرعة لاختصار المسافة بينهما بدقيقة على الأقل. يدخل الرجل مبنى من سبعة طوابق، ولا بدّ أنه سيختفي في غرفةٍ ما في أحد هذه الطوابق السبعة. هذا ما خطر للمرأة بلمح البرق. فتركض. تركض رغم كعبها العالي، قبل أن يضيع الرجل عنها. وتدرك مدخل العمارة وهو واقف عند باب المصعد، بعد أن ضغط على زرّ استحضاره. ينزل المصعد إلى الطابق الأرضي، وينفتح بابه، ويدخل فيه الرجل. وقبل أن يضغط على أحد الأزرار، تندفع المرأة نحو المصعد، وتفتحه، ويد الرجل مرفوعة باتجاه لوحة الأزرار، وهي تلهث، تلهث بشدّة، وقد أحمرّ وجهها، وانفرجت شفتاها عن تنفّسها العنيف، وصدرها يعلو ويهبط بشكل واضح. فيبدي الرجل ما وسعه من لطف لسيّدة مستعجلة كادت أن تسقط على وجهها لتسرّعها، ويسألها: «أي طابق؟» وتجيب: «الطابق الذي أنت صاعد إليه!» فيسألها، ليتأكّد: «السابع؟» فتجيب وهي تهزّ رأسها: «السابع».

يضغط الرجل على زرّ الرقم ٧، وينغلق المصعد، ويتحرّك، والمرأة تنظر إلى شريكها فيه بعينين مفتوحتين واسعتين، ولهاثها مستمرّ بين شفتيها المنفرجتين، ولا تقول شيئاً. ويُحرج الرجل من تركيز عينيها عليه، ويتّجه ببصره نحو الباب، في انتظار انفتاحه عند الطابق السابع. وحين يتوقّف المصعد، وينفتح الباب، يفسح الرجل الطريق لخروج السيّدة أولاً، فتخرج، وتقف عند الباب. ويخرج هو أيضاً، وهو يعلم بالضبط أنه سينعطف إلى اليسار نحو مكتب طلال صالح. غير أنه لا يكاد ينعطف، متوقّعاً من المرأة أن تنعطف في الاتجاه الآخر، حتى يجد أنها تسير إلى جانبه.

فيسألها: «إلى مكتب الأستاذ طلال صالح المحامي، أنت أيضاً؟»

وإذا بها تجيب: «لا، لا، أبداً. أنا مجنونة!»

يتوقّف مشدوهاً: «نعم؟»

فتكرّر: «أنا مجنونة، مجنونة، أستاذ نائل.»

ـ أتعرفينني؟

ـ جدّاً، جدّاً...

* * *

هكذا كانت البداية، كما رأتها وسجّلتها العين التي تابعتني، أو

تابعتنا كلينا، كعين كاميرا خفيّة تنفذ إلى ما وراء الأبواب والجدران، ولكنها تعجز عن النفاذ إلى ما يجري في دواخل الناس.

أو هكذا تخيَّلت الحادث، عندما استرجعته فيما بعد.

لم أدرِ عند تلك اللحظة كيف أتصرّف بالضبط. ولكنني حاولت أن أحافظ على كياستي مع هذه الشابّة الغريبة. وخطر لي: ألعلّها فعلاً مضطربة عقلاً؟ ولكن العاقل فقط يستطيع أن يسمّي نفسه مجنوناً.

قلت مجاملاً: «شيء رائع أن تعرفيني، وتعرفيني جدّاً... هل لي أن أساعدك في شيء؟

ـ لا، لا، أبداً. أردت فقط أن أتحدّث إليك.

ـ إذن، أنت لا تعرفين أحداً في الطابق السابع هذا؟

ـ لا في السابع، ولا غير السابع. ركضت كالمجنونة لكي أدركك. وأنت ميّال إلى السرعة في السير.

ـ كان عليك ن تناديني في الشارع، فأنتبه إليك.

ـ وماذا كنت ستظنّ عندما تسمع امرأة لا تعرفها تناديك أمام المارّة كلهم؟

ـ كنت سأظنّ أنني واهم. أو أنني أنا المجنون.

فقالت بشيء من الجدّ: «يكفينا الآن مجنون واحد.»

فضحكت: «عندما تطلع الشمس بهذه الروعة بعد المطر، يحقّ لنا كلنا أن نتمتّع بشيء من الجنون. هكذا شعرت اليوم وأنا في طريقي إلى هنا.»

وانتبهت إلى أننا واقفان في الدهليز على مقربة من باب مغلق يؤدّي إلى مكتب صديقي.

أجابت: «غريب! الشمس هي التي جعلتني أترك الدار اليوم، هذا العصر. ولكن مع هاجس قويّ، غامض، ألحّ عليّ بأن أخرج.»

ـ لكي تريني؟

ـ لعلّني أراك.

ـ هل أنت جادّة؟

ـ جدّاً.

ـ القدر، ها؟

ـ أيّ قدر، أستاذ نائل؟ جنون. هل كان لديك هاجس، عندما خرجت من الدار، بأنك ستلقى امرأة لا تعرفها؟

ـ أتريدين الصدق؟ كلّما خرجت لأتمشّى، ساورني إحساس بأنني سألقى امرأة لا أعرفها. ولكنني مع الزمن بتّ أعلم أنه إحساس كاذب، لا يُعتمد عليه. والآن، ماذا تقولين: أندخل على صديقي هنا، ونسلّم عليه؟

ـ كما تشاء. أنا لا أريد أن أغيّر خططك.

ـ المسألة لا علاقة لها بأية خطّة. في الواقع، أنا ما جئت هنا إلاّ بدافع فجائي، اعتباطي. لأشرب عند صديقي فنجان قهوة.

ـ أترى؟ كنت مدفوعاً بهاجس لا يختلف كثيراً عن هاجسي.

ـ طيّب، يا سيدتي. كان القدر ينفّذ مآربه... ما رأيك الآن في فنجان قهوة عند طلال صالح؟

وهممت باقتياد محدّثتي، ولم أعرف بعد اسمها، نحو مكتب صديقي. غير أنها وضعت يدها على ذراعي، وأوقفتني عن السير، وقالت، مركّزةً عينيها في عينيّ: «لماذا لا نشرب القهوة في مكان لا يعرفك أحد فيه، ولا يعرفني؟»

تردّدت، وقد تجدّدت دهشتي. ما الذي تريده هذه الفتاة منّي؟ وسألتها: «هل لديك شيء معيّن تريدين أن تحدّثيني عنه؟»

أجابت بلهجة يائسة: «أشياء! أشياء كثيرة!»

وعندها تمعّنت في وجهها، وانتبهت إلى شعرها المشدود إلى مؤخّر رأسها، وشفتيها الريّانتين، وسألتها: «ما اسمك؟»

ضحكت، وتحوّلت لهجتها من اليأس إلى العبث: «أتستجوبني الآن؟»

ـ أريد أن أعرف اسمك، لا أكثر.

فأجابت باقتضاب: «سراب.»

ـ ماذا؟

ـ اسمي سراب. سراب عفّان.

فابتسمت، وأمسكت بذراعها، مستديراً بها في الرواق: «كيف لي أن أقاوم فكرة شرب القهوة مع سيّدة تدعى سراب؟ وسأبقى عطشاناً، ولا شكّ؟»

ـ لا شكّ!

وسارت معي باتجاه المصعد.

غير أنني توقّفت، وقد عاد إليّ بعض عنادي، وقلت: «ولكن بعد أن قطعت هذه المسافة كلها لأسلّم على طلال، يجب أن أراه، ولو للحظتين.»

أُسقط في يدها، وقالت بشيء من الخيبة: «كما ترى. أأنتظرك هنا؟»

ـ تنتظرينني؟ بل ترافقينني. وتسلّمين عليه أنت أيضاً. إنه رجل لطيف جدّاً. قد نراه غارقاً في كتابة قصيدة جديدة.

ودونما تردّد ـ ولا أدري من أين أتتني الجرأة ـ أمسكت بيدها، وأسرعت بها نحو باب المكتب، وضغطت على الجرس. وفتح الفرّاش الباب.

قلت: «مساء الخير، عباس. الأستاذ طلال موجود؟»

ولمّا قال نعم، سرت باتجاه غرفته، وسراب تكاد تتعثّر في رفقتي. وحالما رآنا طلال، هبّ واقفاً وانطلق من خلف منضدته الكبيرة، ليرحّب بي، وهو ينظر متسائلاً إلى السيِّدة التي معي.

قلت معرّفاً وبدون مقدّمات: «الأستاذ المحامي طلال صالح. السيِّدة سراب عفّان.»

وأدركت من نظرة طلال أنه حسب أنني جئتهُ بموكّلة ليس لديّ الوقت لأتعهّد قضيتها. وصافحها. وأشار إلينا، بتكلّف رسمي، بالجلوس. فتمتمت سراب: «شكراً، أستاذ،» ونظرت إليّ بشيء من الحيرة، لأنها لا تريد الجلوس.

فقلت: «طلال، نحن مستعجلان. خطر لي أن نسلّم عليك، ثم نراك في يوم آخر.»

لم يفهم طلال: «ولكن...»

ـ لا، نحن مستعجلان.

ـ فنجان قهوة على الأقل؟ عباس!

ـ لا، لا. القهوة معناها أننا يجب أن نجلس، والسيّدة سراب لديها موعد آخر.

فهزّت سراب برأسها: «نعم، لديّ موعد آخر.» وتحرّكت كأنها تنوي الخروج. ولكنني أوقفتها بلطف، مرّة أخرى، وسألت طلال: «هل من قصيدة جديدة؟»

عندها ضحك، وقال: «وأنتما مستعجلان هكذا؟ الشعر بحاجة إلى جلسة، وقهوة، ووقت...»

وإذا بسراب تسأله بدهشةٍ عفوية: «أنت محامٍ وتكتب الشعر؟»

ـ ألا تعرفين أن ثلاثة أرباع المحامين يكتبون الشعر؟»

وأضفت أنا: «وإلّا كيف لهم أن يقضوا الساعات الطويلة في مكاتبهم بلا عمل؟»

فقال طلال: «اسأليه هو. الأستاذ نائل لا يكتب مجرّد قصائد. إنه يكتب روايات... روايات طويلة.»

وابتسمت سراب: «أدري. كتب ست روايات. قرأتها كلها.»

ـ ها! أنت إذن من عشيرة المعجبات بنائل عمران؟

ـ يعني... فرصة سعيدة، أستاذ.

ومدّت يدها لتصافحه، وأضافت: «أرجو أن أسمع إحدى قصائدك، في زيارة قادمة.»

وتدخّلت بينهما: «زيارة قادمة! أترى؟ هذا موعد. موعد لا ريب فيه!»

وقال طلال وهو يصافحني مودِّعاً: «إذن سأكون في الانتظار. وقريباً إن شاء الله؟»

عند خروجنا من العمارة، قلت: «والآن، إلى القهوة. ولكن أين؟»

نظرت إليّ بعينين محتارتين: «لا أدري. أنا نادراً ما آتي إلى هذه المنطقة.»

ـ هل عندك سيارة؟

ـ نعم، ولكنها في البيت. جئت في سيارة أجرة لكي أستطيع التجوّل بين الدكاكين هنا بسهولة. وأنت؟

ـ في البيت أيضاً. جئت أتمشّى. فالمشي رياضتي الوحيدة. أترين ذلك الفندق الصغير هناك؟ فيه كافتيريا لابأس بها. ما رأيك؟

كان فندق «الأنسام» على بعد مئتي متر أو أقلّ، وكنت أرتاد مطعمه ومقهاه كلّما احتجت إلى أخذ ضيف يزورني فجأة إلى مكان نأكل فيه، لقربه نسبياً من منزلي. ما كنت أخشاه هو أن تعترض السيّدة على مرافقتي إلى مكان عام، والليل الشتائيّ قد هبط بسرعة. ولكن، ألم تكن هي التي اقترحت أن نشرب القهوة في مكان لا يعرفنا فيه أحد؟ قد يعرفني نادل أو أثنان في المقهى، ولكن ما همّ.

أسرعنا السير، وأنا لا أعرف أين أبدأ الكلام مع الفتاة الغريبة، رغم ادّعائها بأنها تعرفني، وبأنها قرأت رواياتي كلها. وخطر لي فجأة أنها صحفية، أو مراسلة إحدى المجلّات، وأنها تريد مقابلة معي لجريدتها أو مجلّتها. وكنت قد اعتدت ذلك الأمر في السنتين أو الثلاث الأخيرة، وأدهشني عدد النساء اللواتي يقمن بهذا النوع من العمل الصحفي، ومعظمهن شابّات، حديثات التخرّج من الجامعة، ويغلب عليهن اهتمام بالشعر لأنهن، فيما يبدو، يكتبنه، ويردن أن يعرفن «سرّه» من ذوي الشهرة الأدبية، أملاً منهن في اختصار الطريق إلى تحقيق المعجزات.

وصدق حدسي. وحال جلوسنا إلى مائدة قرب النافذة الكبيرة، سألتها مباشرة: «لأيّ مجلّة تكتبين؟»

أجابت: «مجلّة «الأسبوع». أتقرأها؟»

ـ نادراً. أهي التي تصدر في باريس؟

ـ نعم.

ـ وتجرين لها حوارات مع الأدباء؟

ـ الأدباء، المفكّرين، الممثّلين، الفنّانين... كله ماشي. وضحكت.

فسألتها: «ولكن أين المسجّل؟»

بدت كمن فوجىء، وأجابت: «المسجّل؟ آ، تقصد المسجّل

لتسجيل الحوار. أنا لا أستعمل المسجّل كثيراً، أفضّل كتابة الأجوبة بخط يدي. ثم إنني اليوم لم يكن يخطر ببالي أنني سألتقيك، هكذا، فجأة، دون سابق إنذار.

جاء النادل، وطلبت قهوة تركية «مضبوطة» لكلينا، وقلت لها: «على كلٍّ، لن نجعل هذه جلسة لقاء صحفي، بل جلسة فنجان قهوة، و. . .» لم تواتني الكلمة الصحيحة.

فأسعفتني: «و. . . تعارف. أليست هذه هي الكلمة التي تبحث عنها؟»

أجبت مازحاً: «تمنّيت لو أن لديك كلمة أكثر. . . دفئاً من مجرّد تعارف.»

وخيّل إليّ لحظتئذٍ أن حمرةً شاعت في خدّيها الشفّافين، وانفرجت شفتاها العريضتان كأن نَفَسها انقطع في صدرها. وانتبهت إلى عينيها الواسعتين، وأهدابها الطويلة. كان وجهها بيضاوياً، ترتفع فيه عظمتا الخدّين بشكل واضح، فتؤكّدان سعة العينين، وعمقهما، كما تؤكّدان فمها الممتلىء. وكان شعرها مسحوباً إلى الوراء يكشف عن أذنيها، وكلتاهما محلاّة بقرط ذهبي بسيط، كما يكشف عن عنق طويل أحسست أنها تبغي التأكيد عليه، لأنه كان حقّاً عنقاً جميلاً، تمنّيت لو أن قلادة ما تتدلّى منه على كنزتها الصوفية الخضراء ـ وحبّذا لو كانت القلادة ذات خرزات كبيرة، حمراء أو سوداء.

في لحظة الصمت تلك، وأنا أتأمّل وجهها، وقلّة حليّها، تخيّلتها تستغيث بي لأمر لا أعرفه، أو لا حيلة لي به. غير أنني أسرعت وقلت، وأنا أخرج علبة السكاير من جيبي: «فلنبدأ بالتعارف إذن . . . أتدخّنين؟» وفتحت لها العلبة.

بحياء أجابت: «نعم، قليلاً.» وتناولت سيكارة، وتناولت أنا أخرى، وأشعلت السيكارتين بمقدحتي التي وضعتها مع العلبة على المائدة، كأنني أوحي إليها، وإليّ أيضاً، بأن لجلسة فنجان القهوة أن تطول، إذا اقتضى الأمر ذلك.

قالت، وهي تنفث الدخان: «هل أدهشك أنني قرأت رواياتك كلها؟»

ـ إلى حد ما. فالمعتاد عندي أن أرى من يقول إنه قرأ كتابي هذا أو ذاك، أو أنه قرأ اثنين منها، وفضّل السابق على اللاحق، أو العكس. ومن المعتاد عندي أيضاً أن ينتهي الكلام إلى طلب نسخة من روايتي الأولى، أو الأخيرة. هديةً، طبعاً.

ـ وماذا تقول عندئذ؟

ـ أقول: أهلاً وسهلاً. ولكنني في الأغلب الأعمّ أعتذر، إذ قلّما تبقى لديّ نسخ من كتبي.

قهقهت، والنادل يضع فنجاني القهوة أمامنا: «إذن لا أستطيع أن أطلب منك نسخة من «الدخول في المرايا»؟

ـ ولكنك تقولين إنك قرأتها؟

ـ النسخة التي قرأتها لا تحمل إهداءً منك ولا توقيعك.

ـ سراب، أنت الآن تحاولين الحصول على نسخة منها، لأنك في الواقع لم تقرأيها بعد.

ـ أبداً. وسترى، حين نبدأ جلسة الحوار، أنني سأناقشك فيها. وهي آخر ما كتبت، أليست كذلك؟

ـ هي آخر ما نشرت.

ـ وهل لديك عمل جديد؟

ـ لديّ دائماً عمل جديد. ولكن ليس هذا المهمّ. المهمّ، من أنت بالضبط؟

ـ أنا، كما قلت لك، سراب عفّان. وكما قلت لك أيضاً، أنا مجنونة.

ـ لا، لا. أنت عاقلة جدّاً.

ـ إذن، أنا عاقلة جدّاً، وأصاب أحياناً بالجنون.

ثم استضحكت، واستدركت: «أو أنا مجنونة، يعود إليّ أحياناً شيء من العقل.»

ـ وفي هذه اللحظة، أيهما أنت؟

ـ كلتاهما معاً!

أطفأت سيكارتها بعصبيّة في المنفضة، وهي ما تزال تضحك ضحكتها الخفيفة. ولم أعرف كيف أعاملها، رغم ما اعتدت عليه من مثل هذه اللقاءات مع غرباء لا يثيرون فيّ أكثر من الرغبة في إعطاء إجابات قصيرة عن أسئلتهم، وأبقى، نفسياً وذهنياً، في معزل عنهم ـ دفاعاً عن دخيلتي. ودخيلتي التي يتصوّرون أنهم يحاولون النفاذ إليها بحوارهم، أصونها على طريقتي الخاصة بكثير من التجاهل، والمداورة، والمزاح.

رفعت عينيها إليّ فجأة. فذُعرت لما بدا لي فيهما من يأس، رغم الابتسامة الباهته على الشفتين. وتذكّرت سهام في تلك اللحظة. تذكّرتها وهي تجالد المرض وتحاول إخفاء آلامها عنّي، وتذكّرت وجهها المرمري وهو يرنو إليّ في أول الصبح بمزيج من البسمة والبكاء. وأحسست كأنّ نظرة سراب نفذت إلى حيث لا أريد من دخيلتي، بحيث تقصّدت، واعياً، أن أرفض لنفسي الانزلاق إلى ما هو وهم من أوهامها ـ أو وهم من أوهامي أنا. هذه شابّة مدلّلة، ولا شكّ، أتيح لها أن تعبث، ولو ببراءة، مع رجل يكبرها كثيراً، وقرأت له أو عنه كثيراً، فراحت تمثّل أمامه دور العاقلة المجنونة، الضاحكة اليائسة، كأنها تصلح نموذجاً لشخصية يدخلها في إحدى رواياته. وما من ريب في أنها بعد قليل ستحدّثني عن صدمة عاطفية، وأزمة عاتية تدفع بها إلى التفكير في الانتحار. ألا ترى كم

أنا معذَّبة، كم أنا تعيسة، وما رأيك فيّ، أيها الكاتب الباحث عن مواضيع تصبّها في قوالبك القصصية؟

ولم يكن لي إلاّ أن ألجأ إلى طريقتي المجرَّبة في مثل هذه الحالات، فسألتها، مستمرّاً بالمزاح: «هل أنت حزينة؟ يائسة؟ تفكّرين أفظع الأفكار؟»

بقيت عيناها طافحتين ببؤسها المجهول، وهي تجيب بما لا يتفق ونظرتها: «أبداً، أستاذ نائل، أبداً... هل تراني حزينة ويائسة؟ كل ما هناك هو أنني منذ أشهر، كنت أتمنّى لو ألتقيك. ولا أكتمك أنني لم أفكّر أول الأمر بلقائك صحفياً. بل كمعجبة. نعم، كمعجبة ـ كما خمّن صديقك طلال. وكنت أتصوَّر أن لقائي بك أمر مستحيل، أعني، الجلوس معك هكذا، والحديث إليك رأساً لرأس. أترى كيف تكون المراهقة المتأخّرة؟»

ـ ها ها! إذن أنت لم تسعي للقائي كصحفية تكتب لمجلّة «الأسبوع».

ـ في البداية، قطعاً لا. ولكن تغيّر الأمر معي حين خطر لي فيما بعد أن أتّصل بك لمقابلتك كجزء من عملي، لا غير.

ـ ولكنك لم تتصّلي.

ـ أوه... المماطلة التي تعرفها، حين تتصوَّر أن الشخص الذي تريده سيكون هناك، ولن يهرب، وسيأتي الدور للاتصال به وفق ما تخطّط من عمل.

غير أن نظرتها المتوتّرة بقيت مركّزة في عينيّ على نحو يناقض كلامها. ومدَّت يدها إلى علبة السكاير، وقالت: «أتسمح لي بسيكارة أخرى؟» وسحبت واحدة، أشعلتها لها، وخيّل إليّ أن يدها رجفت قليلاً وهي تمسك بالسيكارة بين إصبعيها. غير أنني استمررت مازحاً بتجاهلي ما تبديه: «إذن، لك أن تقولي، سبق السيف العَذَل»

ـ وأيّ سيف، أستاذ نائل! قل لي، من كان أبوك؟ أين ولدت؟ لماذا درست القانون؟ ما الذي يدفعك إلى الكتابة؟ هل لك إخوة، وأخوات؟ بمن تأثّرت في صباك؟ لماذا أمضيت خمس سنوات على الأقل بين «جزيرة السمندر» و«المرايا» بدون نشر؟ كم مرّة تزوَّجت؟

قاطعتها: «سراب، ارحميني، أرجوك، واعفيني من قائمة أسئلتك الصحفية. ألم نتفق أن هذه جلسة فنجان قهوة؟

ـ وتعارف.

ـ تعارف، لا بأس، لكن بدون تفاصيل حياتيّة لا نميّز الصادق فيها من الكاذب. ثم أنا الذي أريد أن أعرف عنك شيئاً ما: ألم تقولي إنك تعرفينني جدّاً، جدّاً؟ بالمقابل، أتيحي لي أن أعرفك أنا، ولو قليلاً، قليلاً. ولأسألك من هو أبوك؟ أين ولدت؟ ومتى؟ وماذا درست؟ ولماذا تقرأين كتبي الواحد بعد الآخر، وتحاسبينني على السنوات الضائعة؟

ـ السنوات الضائعة! أجمل السنوات؟ أم أرعبها؟ انظر! إنها تمطر من جديد، وبشدّة!

كان المطر يضرب زجاج النافذة التي جلسنا قربها، ولم أكن قد انتبهت لذلك، وأنوار الشارع وواجهات الحوانيت ولافتاتها المضاءة تضيف لألاءً كثير الألوان على الغيث المنهمر. وقلت: «مهرجان المطر!»

ـ نعم. ولكن انظر إلى الزجاج، تجري عليه السيول على غير هدى.

ثم أضافت بصوت منخفض: «كالدموع.»

وقبل أن أردّ، رفعت يدها عن المائدة باتجاه النافذة، وأتت بإيماءة معبّرة، وهي تحدّق في الزجاج، قائلة: «سيول هنا، وسيول هناك، وقطرات توقّفت في منتصف الطريق، وأخرى تنزاح ببطء نحو قطرات بجوارها...»

وتابعت بعيني السيول والمطر وإيماءات يدها: «هل ترين في ذلك شيئاً لا أراه؟ كقارئة الفنجان؟»

ـ بالضبط.

ـ ولكن الخطوط والرموز المتشكّلة في الفنجان يفترض أنها تتصل بمن شرب القهوة من ذلك الفنجان. أمّا هنا؟ بمن تتصل هذه الخطوط والرموز على زجاج نافذة لمقهى عام؟

ـ آ، أستاذ نائل، ألا تعرف؟ إنها تتصل بالاثنين الجالسين قربها.

ـ تتصل بنا، أنت وأنا؟

ـ طبعاً.

ـ إذن هاتي، اقرأيها.

وبكل جدّية، أو بجدّية الهازل الذي يزعم أنه ينطق بما لا يعنيه شخصياً، قالت، وأصابعها الطويلة العاطلة عن أية حلية تتابع حركة السيول قبل أن يتداخل بعضها في بعض نهائياً: «خريطة هائلة لطرق متشابكة، لن يعرف أحد السير فيها حتى النهاية. أترى؟ كلها طرق مسدودة، أو منحدرة نحو الهاويات. ولكن...»

قاطعتها، منسجماً مع لهجتها الجادّة الهازلة، وقد بدأت أحبّ يديها وأرى في تماوج إيماءاتها الرشيقة تناغماً موسيقياً، كما في لقطة مكبّرة من فيلم بارع التصوير: «أما من بارقة أمل؟»

فأشارت بسبّابتها إلى بقعة انعكست فيها ألوان الأضواء لنيونات الدكاكين المقابلة: «نعم... هناك بحيرة صغيرة من... من نعيم مغلق على من فيه...»

وما كدت أركّز على هذا «النعيم المغلق»، حتى اخترقه سيل

كثيف، وسراب تهتف: «لا، لا! حتى هذا النعيم الصغير جرفه الطوفان!»

ـ إذن سيجرفنا الطوفان؟

ـ هذا ما يبدو.

ـ لا تستعجلي الكارثة، أرجوك. لعلّ في هذه المساحة الشاسعة بحيرة صغيرة أخرى نلجأ إليها؟

ـ أين، أين؟

وبمزيد من جدّها الهازل رفعت رأسها، ومدّت عنقها، وهي تبحث بعينها في أرجاء الزجاجة الكبيرة. بل إنها نهضت عن كرسيّها لترسل بصرها إلى أقصى زوايا النافذة، وأنا أرقب عبثها بمتعة تمازجها الدهشة من قدرة هذه الغريبة على رفع الكلفة بيننا بهذه السرعة، وبهذه البساطة. وراق لي، حين وقفت، ومدّت قامتها من وراء الطاولة، أن ألحظ نفور نهديها الصغيرين من وراء الكنزة الخضراء الطويلة، وضمور خصرها المحاط بحزام أسود عريض يشدّ الكنزة المستمرة بحاشيتها السفلى لتكسو أعلى تنورتها «التارتن» (الاسكوتلندية)

عادت وجلست، وهي تهزّ رأسها يميناً وشمالاً، وتكوّر شفتيها، لتقول: «ولا بحيرة واحدة... الطوفان عام، أستاذ نائل.»

ووجدتني أقول: «أتعرفين؟ أنت مش قليلة، مش قليلة أبداً.»

وبخبث جميل سألت: «صحيح؟ هل اكتشفت فيّ مزيّة تستحقّ الذكر؟»

أجبتها ضاحكاً: «قارئة فنجان من الطراز الأول! ولو أنني كنت أتمنّى لو أنك كشفت لنا عن «نعيم مغلق» آخر، مهما صغر.»

وما كان منها إلّا أن ضحكت ملء فمها وقالت: «في المطرة القادمة، إن شاء الله!»

سألتها: «ومن قال إننا سنلتقي مرّة أخرى؟»

أجابت بثقة الجادّة الهازلة: «أنا أقول. وهذه السيول كلها تؤيّدني.»

ـ ولكن، قبل ذلك، كيف ستعودين إلى البيت في هذا المطر؟

نظرت إلى ساعتها، وهتفت: «أوه، تأخّرت، تأخّرت جداً. ونسيت أن سيارتي ليست معي.»

ـ ولا سيارتي.

ـ ما العمل؟

ـ تكسي.

ـ آه، صحيح. مش مشكلة.

ـ أتعرفين؟ إلى ما قبل عشر سنوات، كانت الكلمة الوحيدة الأكثر تردداً على ألسنة الناس هي: «مشكلة»، كل شيء كان مشكلة. إذا تأخّر النادل قلنا: مشكلة. إذا لم نجد سيارة تنقلنا قلنا: مشكلة. إذا أمطرت الدنيا قلنا: مشكلة. إذا لم تمطر قلنا: مشكلة، أمّا اليوم، فكل شيء أصبح «مش مشكلة»، نو پروبليم. ينقطع الماء في البيت فنقول: مش مشكلة. لا تشتغل السيارة في الصباح البارد فنقول: مش مشكلة. نقف أنا وأنت تحت المطر المنهمر، ونقول ـ

فقاطعتني: «مش مشكلة. ولكن إذا تأخّرت عن الساعة الثامنة في وصولي إلى البيت، مشكلة، وقد تجرّ إلى مشكلة ومشكلة! هل لاحظت، أستاذ نائل، أن المشكلة هي في أنها لا تُحلّ إلّا بمشكلة أخرى؟ ستقول لي هذه جدلية هيغل، وتنسيني ما أنا فيه.»

ـ أنا أصلاً نسيت ما أنا فيه.

ـ جيِّد. إذن كلانا نسينا ما نحن فيه.

وشعرت عندئذ بانجذاب عنيف نحو هذه الغريبة المرحة التي أتتني مع الشمس الغاربة في يوم شتائي، وانحنيت باتجاهها بقدر ما أستطيع دون لفت أنظار جلساء المقهى الآخرين، وقلت: «من أنت بالضبط؟ هل أنت حقّاً سراب؟»

رفعت فنجانها الذي ربّما كانت قد بقيت في ثمالته بضع قطرات من القهوة، رفعته إلى فمها ورشفت القطرات الأخيرة، وجعلت تلحس بلسانها الأثر البنيّ من على شفتيها، وأجابت: «أنا سراب. ولكنني أتمنّى أحياناً لو كنت بحيرة. في الواقع، أتمنّى لو كنت بحراً، ولكن البحر مالح، فأتمنّى لو كنت بحيرة.»

صمتت، وأنا أتمعّن في وجهها، وفي شفتيها العريضتين، ثمّ أضافت، ضاحكة: «ومن كل بحيرات العالم، أتمنّى لو كنت بحيرة طبريّا... أتصدّق؟»

ـ بحيرة طبريّا؟ يقال إنها بحيرة جميلة جدّاً ومدهشة.

ـ اسمها يروق لي.

ـ هذه البحيرة تستطيع أن تكون وادعةً كالحمامة، وفجأة، على غير عادة البحيرات، تصطخب كالمجانين.

ـ صحيح؟ ماذا قلت لك عنّي منذ البداية؟

ـ أنت لست مشكلة، سراب. أنت مشاكل!

كان المطر قد خفّ عندما خرجنا، بحيث يمكن تحمّل نثيثه وقد وقفنا تحت سقيفة المدخل، وأنا أجيل البصر بحثاً عن سيارة أجرة. اقترحت أن أرافقها في السيارة إلى بيتها، اطمئناناً عليها. ولكنها رفضت بإصرار. وعندما ركبت، وقد فتحتُ لها الباب وأغلقتُه وراءها مودّعاً، تذكّرت ـ والسيارة تنطلق ـ أنني لم أعطها رقم هاتفي، ولم آخذ رقم هاتفها.

ورحت مرّة أخرى أجيل البصر في الشارع المتلألىء بالبلَل والأنوار، بحثاً عن سيارة أجرة تحملني إلى البيت. وعندما توقّفت لي

سيارة وصعدت إليها، شعرت بوحشةٍ لم أكن أتوقّعها. لقد تمنّيت لو أن هذه الصحفيّة الحسناء رافقتني. وبقيت أذكر ضحكتها، وعطرها الذي فوجئت به متضوّعاً من شعرها عندما فتحت لها باب السيارة. وحاولت أن أتذكّر بحيرة رأيتها، أو شاهدتها في فيلم سينمائي. وتساءلت: هل كنت صادقاً في وصفي لبحيرة طبريًا؟

* * *

حوالي منتصف الليل، وأنا على وشك إطفاء النور في مكتبي في طريقي إلى غرفة النوم، وقد أوت أختي سالمة إلى فراشها بعد أن اطمأنّت إلى نوم غسّان، دقّ جرس الهاتف. ففكّرت أن من يتلفن في مثل هذه الساعة لا بدّ أن لديه أمراً مهمّاً لا يمكن إرجاؤه حتى الصباح:

ـ هلو.

ـ أستاذ نائل؟ آسفة لإزعاجك في ساعة متأخّرة كهذه.

ـ من يتكلّم، من فضلك؟

ـ سراب عفّان

ـ الصحفيّة الحسناء؟

ـ لا أشكّ في أنك معتاد على الصحفيات الحسان؟

ـ وغير الحسان أيضاً . . . خير؟

وقبل أن تجيب، أضفت: «بعد أن افترقنا، خطر لي أنك لم تطلبي رقم هاتفي، على عادة أهل الصحافة. ولم تعطيني رقم هاتفك.»

ـ رقم هاتفي؟ غير مهمّ. أمّا رقمك فهو عندي منذ زمان.

ـ أولاً، طمئنيني، هل وصلت إلى البيت بسلام؟

ـ نعم، وتذكّرت أنني لم أتفق معك على موعد لإجراء الحوار.

ـ ربّما فقدت الحماس، بعد فنجان القهوة والتعارف.

ـ بالعكس. تركتك وأنا واثقة من أنني سأراك غداً. ولا أدري من أين جاءتني هذه الثقة.

ـ من سيول المطر، ولا شكّ. هل قلت غداً؟

ـ نعم، غداً.

ـ متى؟

ـ ما عليك إلّا أن تعيّن لي الوقت، والمكان.

ـ سراب، أنا رجل كثير الأشغال، ولا سيّما في الصباح.

ـ حالما عدت إلى البيت، تأكّدت من أن المسجّل الذي عندي يعمل، وأن عندي شريطاً أو اثنين جديدين. أريد حديثاً طويلاً، لساعة، أو ساعتين إذا أمكن. وأنا أعلم أنك في الصباح مشغول في مكتبك. هل عندك موظفون وكتّاب كثيرون؟

ـ ثلاثة أو أربعة، كأي مكتب محاماة.

ـ وفي المساء؟

ـ المكتب مفتوح، ولكنني لا أميل إلى الدوام في المساء.

ـ هلّا خرجت على عادتك هذه المرّة، غداً؟

ـ لا، لا أحبّ اللقاءات الصحفية في مكتبي. ما رأيك في المكان الذي شربنا فيه القهوة اليوم؟

ـ ممتاز. في السادسة مساءً؟

ـ في السادسة مساءً، لا بأس.

طَوال السنوات الأخيرة كنت أتعمّد، حين يطلب أحدهم موعداً معي، أن أجعل الموعد بعد يومين أو ثلاثة. وها أنا الليلة أكسر القاعدة ـ وربّما قواعد غيرها ـ لمجرّد أن اقترحت هذه الفتاة عليّ ذلك.

ولأول مرّة منذ سنوات، وجدتني أتطلّع إلى الموعد بمتعة، وأترقّبه. ولأول مرّة أيضاً، أجعل اللقاء في مكان عام، وأخشى ـ وأنا المطلوب ـ ألّا يأتي الطالب في حينه، أو ألّا يأتي أبداً.

وفي اليوم التالي، عندما وصلت إلى كافتيريا «الأنسام» في السادسة مساءً، أو بعدها بدقيقتين أو ثلاث، خشيت أن تكون صحفيتي الحسناء قد سبقتني، فلم تجدني، فخرجت. . . كانت المائدة التي جلسنا إليها في الليلة السابقة خالية. أسرعت إليها قبل أن يحتلّها أناسٌ آخرون، وجعلت أتمعّن من خلال زجاج النافذة في المارّين، رغم الإضاءة القليلة التي في الشارع، عسى أن أراها قادمة، وأعيد النظر في الوقت نفسه باتجاه المدخل. وعندما دخلت، بعد بضع دقائق، كدت لا أعرفها، لولا أنها سارت في خط مستقيم باتجاهي. قوام فارع، وشعر طويل مرسل على الكتفين، وعينان باتساع الدنيا برحابها. ومع كل ما حاولت أن أتبدّى به من وقار فقد استقبلتها استقبالاً كان سيعدّه أيّ إنسان يرانا استقبالاً «حافلاً»، لا مجرّد لقاء صحفية بكاتب. وكان أول ما نطقتُ، وأنا أصافحها: «ما هذا الشعر الرائع!» وأحسست أنها أطلقت من يدها الباردة ليدي إشارة غامضة أجفلت لها، وأنا أنظر إلى عينيها، وفمها الضاحك. كانت ترتدي معطفاً طويلاً، زيتونيّ اللون، مفكوك الأزرار. فلمّا جلست على الكرسي المقابل، نزعته عنها دون أن تقوم، بأن أخرجت ذراعيها من الردنين الواسعين، واستقرّ المعطف حولها، وبعض شعرها السابل تائه على ياقته. وكان حول عنقها هذه المرّة عقد من حجر «الجاد» الأخضر يتدلّى على صدر فستانها الصوفي «البيج». ما أقلّ ما انتبهت في الماضي إلى ما تلبسه امرأة، وكان هذا نقداً تكرّره غاليتي سهام أيام زواجنا، فأدّعي أنني قد لا أنتبه إلى ما تلبسه النساء الأخريات، أمّا ما ترتديه هي، فإنني أتأمّل في «قَصّته»، وطرزه، وألوانه، وأستمتع بها جميعاً استمتاعاً صامتاً. فتقول: لا أصدّقك! وها هي سراب، في المرّة الثانية التي أراها فيها، أدقّق في لون فستانها ومعطفها، كما دقّقت البارحة في لون

كنزتها وتنورتها . . وقلت لها، وأنا أنظر مليّاً في عينيها: «لست أدري، هل عيناك سوداوان أم خضراوان؟ هل هما سوداوان باخضرار، أم خضراوان باسوداد؟»

هزّت رأسها ضاحكة، وهي تقول: «لن أقول لك. ومن العبث أن تطيل النظر إليهما.»

ـ في هذا الضوء الخافت، لا شكّ أنهما تتلوّنان بلون معطفك، زائداً عتمة المكان. أين المسجّل؟

وقبل أن تجيب كان النادل قد أقبل، وطلبنا، كما فعلنا أمس، قهوة مضبوطة.

ثم أعدت السؤال: «أين المسجّل؟»

زمّت بشفتيها، وقالت: «آسفة، أستاذ نائل. لم أحضره.»

ـ نسيته؟ أهكذا ينزل الجندي إلى المعركة دون سلاحه؟

ـ نعم. أنا جنديّ بلا سلاح. ولكن (وهنا فتحت حقيبة يدها الكبيرة، وأخرجت منها كتاباً) أحضرت معي سلاحك أنت، «الدخول في المرايا». هلّا أهديتني إيّاه بتوقيعك؟

ـ أأهديه، وأنت اشتريته بنقودك؟

تناولته من يدها، وفتحته على الصفحة الأولى الخالية وتردّدت فيما أكتب: هل أخطّ لها ما قد يفضح مشاعري الفجائية في تلك اللحظة؟ طبعاً لا ـ أو، بمقدار فقط. فكتبت: «إلى سرابٍ أشدّ بريقاً من المرايا.» ووقّعت.

تسلّمت الكتاب مني بلهفة، وقرأت ما كتبت. «الله!» هتفت، ثم . . . ثم قرّبت الكتاب من شفتيها، وأغمضت عينيها، وقبّلت توقيعي.

وشعرت عندها بحرج شديد. أتحبّني؟ أتحبّني هذا الحبّ كله حتى تقبّل اسمي؟ أم أنها تمثّل؟ ولماذا تمثّل؟ وعندما رفعت عينيها إليّ، والصفحة المفتوحة ما زالت لصق شفتيها، كانت في عينيها ضراعة غريبة، أو لعلّه ذلك اليأس الذي لمحته فيهما ليلة البارحة. ما الذي أنا مقبلٌ عليه مع هذه الفتاة الغريبة؟

في تلك اللحظة، لحسن الحظ، جاءنا النادل بالقهوة ليبدّد الشحنة التي انشحن بها الجوّ باتجاه غير متوقّع. وقلت وأنا أرفع الفنجان: «ما زلت أعتقد أنك لم تأتي بدون مسجّل. إنه في حقيبتك اليدوية الكبيرة هذه.»

ـ أبداً. هاك، انظر.

وفتحت الحقيبة أمامي، ولم يكن لي إلّا أن أتسامح معها، وقلت: «إذن، حسناً فعلت.»

وقبل أن تمسّ قهوتها، ارتفعت يدها إلى صدرها، وجعلت تعبث بالعقد الأخضر، كأنما تتلمّس به قوّة خاصّة، وقالت: «عندي اعتراف، أستاذ نائل.»

فمازحتها: «سراب، هل ارتكبت خطيئة بين الأمس واليوم، فأردت الاعتراف؟»

هزّت رأسها أن نعم: «خطيئة، أرجو ألّا تعتبرها خطيئة مميتة.»

ـ يتوقّف الأمر على مدى خطورتها.

ـ إذن، فهي مميتة، لأنها خطيرة.

طاب لي نزوعها إلى الاستمرار بالمزاح وهي تتظاهر بالجدّ.

ـ اعترفي إذن، وأريحي ضميرك، ولو مؤقّتاً.

أخذت رشفة من فنجانها وقالت ببطء: «أستاذ نائل، أنا كذبت عليك.»

صمتت هنيهة، ثم نظرت في عينيّ مباشرة، لتؤكّد أن لا مواربة في ما ستقول، وأنها جادّة هذه المرّة: «أنا لست صحفية.»

ـ ولا تكتبين لمجلّة «الأسبوع»؟

ـ ولا أجري حوارات مع الأدباء.

ـ ولا الفنّانين ولا الممثّلين ومن لفّ لفّهم؟

ـ والمسجّل الذي أملكه في البيت من النوع الكبير، ولا أستعمله إلّا لعزف الأشرطة الموسيقية.

ـ إذن، سراب، فرّحتني.

ـ صحيح؟

ـ طبعاً. لأنك أردت لقائي لمجرّد اللقاء بي، لشخصي.

ـ أردت أن أسمع صوتك، أن أراك تتكلّم.

ـ ولكن هذا يخيفني. أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

ـ هذا ما قالته صديقتي رندة الجوزي، التي حذّرتني أكثر من مرّة من لقائك. أتعرف رندة الجوزي؟

ـ لا. من هي؟

ـ كاتبة مغمورة، مثلي. تطلعني على ما تكتب، وأطلعها على ما أكتب. ولا ترضى إحدانا عن الأخرى. أتعرف ماذا قالت عنك؟ قالت إنك قمعتني.

ـ أنا قمعتك؟ أنا الذي لم أكن أعلم بوجودك حتى البارحة؟

ـ قمعتني بكتابك الأخير هذا . . . ما كدت أنتهي من قراءته حتى رحت أمزّق مخطوط رواية كنت على وشك الفراغ منها. ورأتني رندة أفعل ذلك، فراحت تكركر، وكانت هي أيضاً قد قرأت كتابك. وقالت: «أرهبك نائل عمران! قمعك! إيّاك أن تكتبي بعد اليوم!.»

ـ كلام فارغ. بل ستكتبين. ستكتبين رغماً عن نائل عمران. وأتمنّى لو أقول: ستكتبين بسبب نائل عمران. أخبري صديقتك ـ ما اسمها؟ ـ أن هذا ما يقوله نائل.

ـ ولكنك لم تقرأ شيئاً مما كتبت. من أين لك هذه الثقة بي؟ أمن سيول مطر البارحة أيضاً؟

ـ طبعاً... انظري إلى النافذة الآن: ما أصفاها!

ـ ولكن لا أرى من خلالها إلاّ الظلام.

ـ لا تتشاءمي. أنت الآن ترين من خلالها الظلام وقد هشّمته الأضواء.

ـ هل الظلام جسد يتهشّم؟

ـ بل هو روح، والنور هو الجسد.

ـ لست أدري إن كنت أتفق معك. أتصوّر أن الظلام هو الجسد، والروح، إن وجدت، هي النور الذي يهشّمه أو، على الأقل، يعيد تركيبه، ويوهّجه.

ـ قد تكونين على حق. ولكنني، على عكس المفهوم السائد، أتصوّر أن الجسد هو النور الذي، إذا أُبتلي بروح مظلمة، انطفأ. وإذا انطفأ الجسد، كان مجرّد مادة ميّتة. ولكنه قد يضرم الروح بنوره ويلهب فيها النار، ويبقى الاثنان مشتعلين.

ـ أظن أننا، جوهرياً، متفقان.

ـ ولماذا لا نختلف؟

ـ فلنختلف إذن.

ـ ما لون عينيك؟

ووجدتني دونما تفكير مسبق أمدّ يدي إلى يدها المستقرّة قرب فنجانها، وأضغط عليها. فقلبتْ يدها لتمسك بكفّي وتضغطها لثانيتين بأصابعها الطريّة، ثم سحبتها، وأخذت رشفة أخرى من قهوتها.

أممكن هذا؟ أممكن أن يأتي الحبّ مرّة أخرى كالصاعقة؟ أم أنني بتُّ عديم المقاومة، وسقطت عند أول إغراء؟ وجاءتني ذكرى رشأ منصور في بيروت قبل أكثر من عشر سنوات، قبل انفجار مأساتها الماحقة. جاءتني ذكرى تلك الليلة التي وجدتني فيها أعانق تلك الطالبة الجامعية، وكانت تلك أول مرّة ألتقيها فيها، بعد محاضرة ألقيتها في الجامعة الأمريكية. وشعرت أن الدنيا ما عادت تعني فجأة إلاّ هذا الوجه الهارب من إحدى لوحات بوتيشلّي يطالبني بما نسيته منذ عهد بعيد. وفي المساء التالي سألت سيّدة جليلة كنت ضيفاً على مائدتها: «أيمكن أن تحبّ فتاة في الحادية والعشرين رجلاً في الخامسة والأربعين؟» فضحكت وقالت، ناظرةً في عينيّ نظرة العارف: «عندما تحبّ المرأة رجلاً لا تسأل عن عمره.» لا أدري إن كنت اقتنعت بجوابها، غير أنني لم أسألها عن حالي أنا، وأنا أدري بها: فقد كنت قضيت النهار كالمأخوذ مع رشأ، ننتقل من مقهى إلى مقهى، ونتأمّل البحر من على صخور الروشة، ونتحدّث عن انتحار العشّاق... صاعقاً جاءني ذلك الحب، وكنت أحسب أن مثله لا يحدث إلاّ للذين هم في مطلع العشرينات من عمرهم. صاعقاً جاءني، وكنت أحسب أنني انتهيت من مثله بعد أن تزوّجت من سهام خير الدين عن حب جامح سبّب لي ولها إشكالات مؤلمة مع أهلها وأهلي، وقد مرّت سبع سنوات على زواجنا لم يتسلّل بيننا في أثنائها دخيل يفسد علينا يوماً واحداً من حبّنا. تالة الظاهر وحدها كانت في أول الأمر تحوم حولنا كطيفٍ قد يداهمنا في ساعة من الغفلة محمّلاً بالخطر، غير أن زواجها فيما بعد من شريف الترك أقصى ذلك الطيف عنّي. وكان أسبوعي الأول مع رشأ في بيروت وبرمّانا وجونية أسبوعاً خارجاً عن الزمن: أسبوعاً كل ساعة فيه بدهر كامل من الإثارة والعنفوان. وعدت إلى سهام لأجد أنّني ما زلت أحبّها، بل لعلّني ازددت حبّاً لها، وازددت شهوةً في تملّكها، مع كلّ تشبّثي برشأ. وعشت التناقض اللذيذ الممزّق ساعة بعد ساعة. وكانت الأشهر القليلة التالية، وأنا أكتب إلى رشأ، وتجيبني، أشهر البحران الصوفيّ، كأنّني في دوران لا ينتهي من رقصة الدرويش. وكانت سفرتي إلى بيروت، كل خمسة أسابيع أو ستة، بحجّة قضية في المحاكم اخترعتها تستدعي حضوري الشخصي هناك، عودة كلّ مرّة إلى المزيد من البحران الجنوني. إلى أن فرغت رشأ من كتابة وتقديم رسالتها للماجستير (بالانكليزية) عن «جلال الدين الرومي والقديسة تيريزا»، وعادت إلى رام الله في الضفّة الغربية، حيث استحال عليَّ الذهاب تحت ظلّ البنادق الإسرائيلية.

أمرّةً أخرى تمزّق البروق سواد الليل، وتصيبني الصاعقة؟ وإذ راحت سراب تتكلّم المزيد عن الجسد والروح، كما تراها، كان بي ما يكفي من الوعي لأتساءل: أيمكن أن أعود فأعرف نشوة الدرويش في دورانه الراقص؟ أهي لمسة يدها؟ أهي ألوان عينيها؟ أهي ضحكة أسنانها؟ هذه عابثة شهيّة انبثقت بين البارحة والليلة من العدم، وفي شعرها المنسرح تهاويل شيطانية.

رأتني سراب ساهماً، أصغي ولا أجيب. فقالت: «هل سمعت شيئاً مما قلت؟»

أجبت: «لم أسمع شيئاً، وفهمت كل شيء.»

فكركرت: «بل سمعت كل شيء، ولم تفهم شيئاً.»

فقلت بكل ما استطعت من جدّ: «أتذكرين ليلة أمس لأول؟ أتذكرين الرعد المتواصل، والصواعق؟»

ـ أموت خوفاً من الرعد. لم أستطع النوم طوال الليل، كأن السماء ستنهار فوق رأسي وتحطّمني. ولكنني فتحت الستائر لأرى الوميض الهائل يتكرّر وكأنه هو الذي يزمجر ويهدّد الكون بالويل.

ـ سراب، أنا أعشق البروق الصاعقة. ويبدو أنني قد صُعقت.

ـ بَعُد عنك الشرّ، دكتور نائل! لو صُعقت، لكنت الآن فحمةً كبيرة.

ـ أنا فحمة كبيرة، ولكن متأجّجة... سراب، من أنت؟ لماذا لا

تجيبينني؟ من أين أتيت؟ من أرسلك إليّ؟ لماذا لم تسمعي نصيحة صديقتك ـ ما اسمها . . .

ـ رندة الجوزي؟

ـ نعم، رندة. اسمها جميل. ولا أشكّ في أنها ذكية كذلك.

ـ جدّاً. وهي مثلي تموت خوفاً من الرعد، وتحبّ متابعة البرق. كنا معاً ليلة أمس الأول.

ـ ليتني أنا كنت معك.

ـ لتحميني؟

ـ لنُصعق معاً، أنا وأنت!

ومددت يدي وأمسكت يدها بقوّة، وأردت لأصابعي أن تتحاور مع أصابعها، وأحسست بالفعل أن أصابعنا تداخلت وراحت تتحاور، وما عادت بنا لحوالي دقيقة حاجة إلى الكلام، لولا أنها التفتت حولها بفزع، والمقهى يكاد يمتلىء بروّاده، وسحبت يدها لتمسك بها فنجانها الذي لم تبق فيه إلاّ بقايا القهوة الكثيفة، وترفعه إلى شفتيها دون أن يصيبها منه شيء، وعيناها السوداودن الخضراوان مرفوعتان إليّ.

وبقيت صامتاً أتأمّل وجهها. وقدّمت لها سيكارة، وعندما أشعلتها لها، تمعّنت في الضوء الذي أنار شفتيها أسفل أنفها لبرهتين ـ وتذكّرت وجه سهام المنحوت في الرخام: هنا أيضاً رخام يريد من يتحسّس صقله الأملس. وكدت بعد أن وضعت المقدحة على المائدة أن أرفع أصابعي إلى شفتيها وأنفها لأطمئنّ إلى أن هذا الرخام المصقول يستجيب للّمس. وخيلّ إليّ أنها علمت بما يدور في ذهني، فرفعت رأسها، ثم أدارته قليلاً، وهي تنفث الدخان، كأنها تريدني أن أتملّى منها جيّداً.

وفجأة قلت: «بروفيلك يُظهر كيف تتصل أرنبة أنفك بجبينك، وكأنك تمثال إغريقي. وجهك رأيت مثله في تماثيل الآلهة في الأكروبوليس بأثينا.»

ـ هذا إطراء جميل، أحبّه. ما من امرأة إلاّ وتحبّ الإطراء.

ـ هذا ليس إطراء. إنه محاولة لتحديد شيء أراه أمامي.

ـ جعلتني «شيئاً»، دكتور نائل؟

ـ شيئاً يتصل بأعظم ما صنع الإنسان. إنه حضور، حضور قويّ، رائع.

ـ وجهي فقط؟ أرنبة أنفي؟

ـ كلّك، كلّك . . . سراب، كيف لم تتزوّجي حتى الآن؟ كيف لم يخطفك أحد؟

ـ بل تزوّجت. وكانت تجربة مرّة خلّصت نفسي منها بسرعة، وبصعوبة.

ـ حدّثيني عنها.

ـ الآن؟ أتريدني أن أعكّر هذا الينبوع العذب الذي جعلتني أستحمّ فيه؟

ـ وفي هذا البرد؟

ـ في هذا البرد الجميل، المطعون بالصواعق.

ـ سراب، بعبارتين اثنتين خلقت صورة كاملة، صورة غير عادية. أكاد أرى إله الصواعق ـ جوبيتر، أليس كذلك ـ يرمي بقذائفه النارية حول حوريّة جُنّت من الحب في يوم بارد، وراحت تستحمّ في مياه ينبوع تجمّعت بين الصخور. . . وجوبيتر عاشق ماكر. إنه يغازل الحوريّة على طريقته.

ضحكت سراب ملء فمها، وهزّت خصلات شعرها يمنةً ويسرةً، ودنت مني بوجهها بقدر ما تستطيع، قائلة: «أتدري؟ إنك تذكّرني بدروس الدراما الكلاسيكية في كلية الفنون. أنا لم أخبرك أنني درست الفنّ المسرحي في كلية الفنون. وكان أستاذنا منذر فاضل خرّيج أحد معاهد فرنسا، ويعشق كورنيّ وراسين، ويصرّ على أن نتمرّن بتمثيل مقاطع طويلة من مآسيهما، على غرار الكوميدي فرانسيز أيام زمان. وكان علينا أن ندرس الإشارات الأسطورية اليونانية والرومانية التي تملأ تلك النصوص.

ـ ولكن دراستي أنا كانت شيئاً آخر بالمرّة.

ـ فلأعترف لك مرّة أخرى: رغم كل ما قرأته لك، كنت أخشى أنك عندما نلتقي ستحدّثني بلغة قانون العقوبات، وذيل قانون الشركات، وتعديل ذيل قانون الجُنح، وتعديل الذيل، وتنازع القوانين. . .

ـ اختصاصي الحقيقي هو القانون الدولي، الذي درسته في جنيف، ولكنني مرغم على العمل كمحام. وهو ليس إلاّ وسيلة رزق. أما هواي الفعلي فشيء آخر تماماً.

ـ دعني أسألك: لو خُيّرت بين الخبز والحبّ، أيهما تختار.

ـ أنا يا سيّدتي رجل عملي: أختار الخبز.

ـ يا خيبتي! أمّا أنا فأقول: أعطني حبّاً، وعيّشني على الماء.

قابلتني بوجهها وعينيها الواسعتين وشفتيها الأشبه بمرمر وردي، واجتاحتني رغبة هائلة في أن أحتوي خدّيها بين راحتيّ وأقبّلها عبر المائدة، عبر بقايا القهوة، وأعقاب السكاير. ولم يكن مني إلاّ أن صحت صيحة مكتومة: «آه، وقليل من الخمر!»

وتجمّد وجهها على ابتسامتها. أم أن ذلك كان يأسها القديم يأتيها بين لحظة ولحظة؟ ثمّ دنت من وجهي وهمست: «ألم أقل لك إنني مجنونة؟»

وانتابني حزن غريب وأنا أرنو إلى عينيها. وتمتمت: «تبيّن لي أنني أنا المجنون.»

ـ أتدري كم الساعة؟ تخطّت الثامنة. حصّتي من الليل نفدت.

سندريلاّ يجب أن تعود راكضةً إلى موقدها.

ـ أعطيك حصّتي من الليل، وهي لا حدّ لها. فابقي.

ـ يا ليت! عليّ أن أكون في البيت قبل عودة أبي من العيادة.

ـ من أنا حتى أناقشك في أمور كهذه؟

ـ أنتحرّك؟

قالت ذلك، ودفعت بكتاب «المرايا» في حقيبتها.

ـ يلاّ. معك سيارة اليوم؟ سأرافقك إليها.

كانت سيارتها في نفس الفرع الضيّق المعتم الذي أوقفت فيه سيارتي. بل لم يكن يفصل بين السيارتين إلاّ سيارة واحدة.

فتحتْ باب سيارتها، ومدّت يدها لتصافحني، غير أنني رفعتها إلى شفتيّ ولثمتها. وقبل أن أنظر حولي لأتأكّد من خلوّ المكان من عابري السبيل، أمسكت بوجهها بين يديّ، وقبّلت فمها، ولم أُطل القبلة الشهية تحسّباً للمكان العام، ولكنني رأيت في عينيها وشفتيها، رغم قلّة النور، يأساً وألماً مريعين، وقدّمت لي شفتيها بضراعة هائلة مرّة أخرى. فأطبقت فمي على فمها بضراوة، وكأنني لم أقبّل أمرأة منذ عشر سنين. ولهثتْ على خدّي: «أوه، نائل...»

قلت لها وهي تستقرّ على مقعدها: «غداً؟ ولكن لا. غداً عندي دعوة عشاء.»

قالت وهي تشغّل المحرّك: «سأخابرك الليلة ونتفق. هه؟»

عند عودتي إلى البيت، كانت سالمة قد هيّأت عشاءً لها ولغسّان، وأسرعت بإضافة صحن آخر لي، قائلة إنها لم تكن تعلم متى سأعود. وبعد العشاء، أطلعني غسّان على دفاتر القراءة والحساب والمعلومات الحياتية، والتمارين التي انتهى منها. ثم رافقناه أنا وعمّته إلى فراشه، وهو يمانع ويطالب بالتفرّج على سهرة التلفزيون، ونحن نصرّ على ضرورة نومه في تلك الساعة، لكي ينهض في الصباح مليئاً بالحيوية، ويبذّ أقرانه في الدرس واللعب في المدرسة، إلخ.

في منتصف الليل ذهبت إلى غرفة نومي، ونقلت إليها أحد جهازي الهاتف اللذين في البيت، ووضعته على «الكومود» قرب رأس فراشي، على غير عادتي. كنت في انتظار مخابرة من سراب، وبي إحساس عميق بأنها لن تنام قبل أن تتصل بي. حاولت أن أقرأ في الفراش، على غير عادتي أيضاً، فلم أفقه كلمة ممّا قرأت. وما كاد جرس التلفون يرنّ أول رنّة حتى رفعت السمّاعة. وجاء صوتها همساً، كأنها تخشى أن يسمعها أحد وهي تتلفن.

ـ ألم تنم بعد؟

ـ وعدتني بالمخابرة، فكيف أنام؟

ـ أنا متعبة بشكل بديع، وأريد الآن النوم.

ـ وما الذي أتعبك بهذا الشكل البديع؟

ـ كتابة المزيد من يومياتي.

ـ نعم؟

ـ منذ مدّة وأنا أكتب ما يحدث لي كل يوم ـ ما يحدث، وما لا يحدث.

ـ وما لا يحدث أيضاً؟

ـ إلى حدٍّ ما.

ـ يبدو أنك اليوم كتبت عما حدث ـ عن جلستنا هذا المساء؟

ـ صفحات وصفحات.

ـ بحرارة؟

ـ وبعمق.

ـ هل ستسمحين لي بقراءتها؟

ـ مستحيل! أأفضح لك أسراري؟

ـ وهل معرفة أسرارك فضيحة؟

ـ وأيّ فضيحة... هل قلت إن لديك دعوة عشاء غداً؟

ـ لسوء الحظ. مع طلال صالح، وآخرين لم أرهم منذ زمان. أتذكرين طلال؟

ـ وكيف أنساه؟ وعدنا بقصيدة، وعلينا أن نطالبه بإنجاز الوعد.

ـ سأذكر له ذلك. وبعد غد...

ـ نائل! لا أستطيع أن أفكّر في ما بعد غد...

ـ سنتخابر.

ـ تصبح على خير. ولكن، قبل أن تنصرف، قل لي: إن أنا لسبب ما لم أستطع النوم، أتأذن لي بإيقاظك للحديث معك؟ هل في البيت من ينزعج من جرس التلفون في آخر الليل؟

ـ لك أن توقظيني في أيّة ساعة شئت. ولكن افرضي أن أباك سمعك تتحدّثين بالتلفون في الثالثة صباحاً؟

ـ سيذبحني. ولكن ما همّ... ثم إن أبي ثقيل النوم... أوه، أريد أن أنام الآن... مرّة أخرى، تصبح على خير.

* * *

فرحت جدّاً بلقاء صديقي القديم عبد الله الرامي بعد انقطاع طويل بيننا. فأنا لم أره منذ مطلع السبعينات، بعد تلك الصيفية الغنية بالنقاشات التي قضينا معظمها في سوق الغرب بلبنان. كان عمله السياسي، منذ منتصف السبعينات، يقتضي منه التكتّم الشديد في حركاته، وأغلب الظن أنه كان يتنقّل من بلد إلى آخر باسم مستعار، أو بأكثر من اسم. وكان معظم نشاطه الفدائي فيما فهمت في أقطار أوروبا الغربية. أدهشني أن أراه، وهو الآن على مشارف الخمسين، وكأن يد السنين تعجز عن أن تطوله: أسود الشعر، عالي الضحكة، متوقّد العينين، يمشي بظهر منتصب وكأن مآسي الدنيا ـ والله يعلم أنه عرف الكثير منها في السنين الخمس عشرة الأخيرة ـ لا تستطيع أن تحني كتفيه.

سألني في الحال عن سهام: فهو لم ينسَ إعجابها بكتاباته في إحدى المجلّات اللبنانية يومئذ، وكيف كانت لا تضيّع فرصة لمرافقتنا في جلساتنا وأحاديثنا لإعجابها الصريح بحماساته التي يشتعل بها ولكنها لا تحجب أبداً خفّة ظلّه ودعابته.

وقد صُدم بشكل لم أتوقّعه عندما أخبرته بوفاتها، وقال بصوت يهزّه الحزن: «كنت أعتبرها من أروع من لقيت من النساء.» وحدّثنا فيما بعد عن زوجته الدانمركية التي تركها في كوبنهاغن، وقال بصراحته المحبّبة، إن انجذابه إليها «بدأ سياسياً، وتحوّل إلى جنسي، وهو الآن في حالة ما بين بين...»

كانت سهرتنا معه في فندق «هوليداي». وكان طلال، صديقه القديم الآخر، في حالة تجلٍّ شعري، كدأبه كلّما تخطّى بالويسكي الكأس الثانية. وكان معنا سلمان أبو عوف الذي يدعو نفسه «الأديب الذي ضرب على نفسه الصمت»، رغم شهرته طوال السبعينات بما كان يكتب من عمود أسبوعي في جريدة «الرقيب»، بالإضافة إلى روايتين اثنتين حظيتا آنئذ باهتمام واسع هنا وفي عدة أقطار عربية، أصرّ بعدهما على أنه، بعد أن قال ما قال لحوالي عشرين سنة، «لم يبق ما يستحق عناء القول». وينخزني بين حين وحين، قائلاً: «وهذا نائل، رغم كل نجاحه في استغلال تناقضات الشرائع والقوانين، لا يكفّ عن القول، روايةً بعد رواية بعد رواية... والله لو كنت شهريار لأمرت مسرور بضرب عنق شهرزاد قبل أن يدركها الصباح، لكي تمسك عن الكلام المباح!» فعلّق الطيّب الهادي، ونحن نضحك، بأن شهرزاد كانت ستجمّد ذراع مسرور وهي مرفوعة بسيفها في الفضاء، بقولها له، وكلها إغراء: «بلغني أيها السيّاف السعيد...» وأين السيف من الكلمة؟

والطيّب الهادي، صديقي القديم أيضاً، كان في زيارة نادرة بشأن دراسة يكتبها للمجلّة التي يعمل فيها في باريس. وهو يراوح في إقامته بين باريس والرباط، وذلك منذ أن خرج من بيروت مع المقاتلين الفلسطينيين في السفينة التي حملت أعداداً كبيرة منهم إلى تونس في أوائل الثمانينات. وكان من الأدباء المغاربة القلائل الذين وجدوا مستقرّاً في بيروت في السبعينات، حيث عمل في الصحافة، على هامش النشاط الفلسطيني فيها أول الأمر، ثم منخرطاً في الثورة بقلمه وكيانه جميعاً، حتى غداً من أعلام تلك الشلّة المدهشة التي، في بيروت، غيّرت وجه الصحافة العربية في كل مكان، وساهمت، بانطلاقها من واقع النضال الفلسطيني، في تغيير مسارات الشعر والرواية والنقد في الوطن العربي بأجمعه.

وكنت أكنّ للطيّب حبّاً لأنه، عدا كل شيء آخر، عاصر أيامي السحرية مع رشأ منصور، وكثيراً ما التقينا ثلاثتنا معاً في مقاهي ومطاعم بيروت في سهرات تستمر حتى الفجر... إلى جانب شجاعته الفكرية، تعجبني ذاكرته الفذّة: فهو يحفظ القرآن الكريم حفظاً مدهشاً. فإذا ذكر أحدهم آية، وقام حولها خلاف أو جدل، ذكر الطيّب في أية سورة بالضبط وردت، والسياق الذي وردت فيه. وإذا قرأ شيئاً راق له، انطبع نصّه في دماغه! وفي تعلّقه بالشعر، كان القديم والحديث يتمازجان على لسانه دونما جهد، من امرىء القيس والشنفرى إلى أحمد شوقي وابراهيم طوقان، فضلاً عن معاصريه وزملائه الكثيرين من الشعراء.

وهكذا كان اجتماعنا في تلك الليلة حدثاً رائعاً لنا جميعاً. واختلطت مواضيع حديثنا اختلاطاً هائلاً، من الحميم والخاص، إلى ذكرياتنا المشتركة، إلى مواضيع الساعة العامة، العربية منها وغير العربية. ويبدو أن الطيّب قد اكتشف مؤخّراً الكاتب النرويجي كنوت هَمْسون الذي قرأه بالفرنسية، ورأى في تأثره بنيتشه تلك النوازع التي توجِد أبطالاً متفرّدين في شعوب هي، كما قال الطيّب، لسوء حظّها، بحاجة إلى أبطال، وإذا البطل يرقى قمم المأساة لا وحده فحسب، بل بشعبه جميعاً، وعندها هاتي يا مآسي وهاتي يا مذابح! واستشهد بقول إحدى شخصيات هَمْسون المهمّة، بطل ثلاثيته «كارينو» الذي يقول ما معناه: «إني أؤمن بذلك الذي يولد زعيماً، ذلك المستبدّ الذي توجده الطبيعة، ذلك السيِّد القائد، لا الرجل الذي يختاره الآخرون، بل الرجل الذي يختار نفسه ليكون حاكم الجماهير. إني أؤمن بشيء واحد، وآمل أن أراه يتحقّق: وهو عودة الإرهابي الأعظم، الخلاصة الحيّة للسطوة الإنسانية، القيصر...»

ثم أضاف الطِّيب: «هل كان هَمْسون يتنبّأ، قبل ثمانين سنة أو أكثر، بما راح يتدافع نحوه العرب، وشعوب العالم الثالث، باحثين عن الإرهابي الأعظم قيصراً لهم، ولكن دون أن يحقّق القيصر المزعوم إلّا كل ما هو النقيض من أحلام نيتشيه؟... قبل شهرين كتبت مقالاً عن بطل كنوت همسون هذا، وحاولت أن أرى كيف يتحقّق، أو لا يتحقّق، في الأنظمة العربية المعاصرة. أتدرون ما حدث؟ منع عدد المجلّة الذي ظهر فيه المقال في معظم الأقطار العربية! وكانت تلك المرّة الثالثة التي يمنع فيها عدد من المجلّة بسبب مقالٍ لي، فعاتبني رئيس التحرير بقوله: دخيلك يا أبو محمد، أنا كلّي احترام لآرائك، ولكن لا تسبّب لي منع المجلّة في العالم العربي كل أسبوع. بدنا ناكل خبز... ومنذ ذلك اليوم يصرّ العمّ أبو حسن على قراءة كل مقال أكتبه قبل أن ينزله في المجلّة!»

في أثناء ذلك الكلام الكثير، المتراشق في كل صوب، لم تغب سراب عن ذهني لحظة واحدة. وعلّلت نفسي بأن السهرة قد تنتهي حوالي منتصف الليل فيتاح لي الحديث معها هاتفياً قبل النوم. ولكن السهرة التي جمعتنا بعد غياب السنين الطويلة لم تكن لتنتهي بهذه

السرعة. واستمرّت حتى ما بعد الواحدة بعد منتصف الليل.

في البيت وجدت أختي في المكتبة، تراجع مجموعة من الأوراق، والقلم بيدها. فسألتها: «ما هذا يا سالمة! أما نمت حتى الآن؟»

قالت وهي ترفع النظّارة عن عينيها، بادية الإعياء: «عندي تقرير سنوي أقدّمه غداً للمدير العام، لم أستطع إتمامه إلّا قبل ساعة. وها أنا أراجعه وأصحّحه التصحيح الأخير. كيف كانت سهرتك؟»

ـ ممتعة جداً. هل خابرني أحد؟

ـ نعم. سيِّدة خابرتك مرّتين. أتصوَّر أن لها قضية عندك.

ـ هل ذكرت اسمها؟

ـ كتبتُ اسمها على ورقة، هنا، لئلاّ أنساه.

وناولتني الورقة. فلمّا قرأت الاسم، دُهشت جداً «رندة الجوزي؟ متأكِّدة».

ـ متأكِّدة. لماذا تسمح لعملائك بالاتصال بك في البيت؟ يجب أن تعطيهم رقم هاتفك في المكتب فقط.

ـ هذه سيّدة لم أعطها رقماً قط. بل لم أرها قط أصلاً. ألم تترك رسالة؟ ألم تترك رقمها؟

ـ لا. سألت عنك بعد العاشرة بقليل، ثم أعادت الكرّة عند منتصف الليل. كيف يخطر لأحد أن يتلفن في مثل هذه الساعة؟ عندما أخبرتها أنك لم تعد بعد، قالت إنها ستتصل بك غداً في المكتب.

ـ لا بدّ أن لديها قضية مهمّة. يلاّ، عزيزتي، قومي نامي. غسّان نائم؟

ـ سهر قليلاً، ثم أقنعته بالنوم.

ـ طيّب. تصبحين على خير.

اتجهت نحو غرفتي وأنا أتساءل: ما الذي تريده صديقة سراب بهذا الإلحاح؟ أرجو ألاّ يكون قد وقع مكروه لسراب... ووقفت أمام تمثال سهام، أطيل النظر في العينين، في الأنف، في الشفتين. ما الذي تفكّرين، أيّتها الغالية؟ أحزينة أنت؟ أغاضبة؟ أساخرة؟ واقتربت منها، وتحسّست وجهها البارد وجبينها، ومررت بأصابعي على فمها، وعنقها. «أمرّةً أخرى، أمّرةً أخرى؟» هذا ما تقولين يا سهام، أدري، أكاد أسمعك...

في ظهيرة اليوم التالي، وأنا أراجع الصيغة النهائية للنصوص العربيّة والإنكليزية لاتفاقية مقاولة هيّأها معاوني الأستاذ عبد الخالق شعيب، حوَّل عليّ رزوقي مكالمة هاتفية (بعد أن سألني على الخط الخاص: «سيِّدة اسمها رندة الجوزي تريد مكالمتك. هل أحوّل عليك الخط؟» فقلت نعم).

ما كادت تقول هلو، حتى شعرت أنني، رغم فضولي الشديد، يجب أن أتحفَّظ في ما أقول بشأن سراب ـ وهل لديها ما تحدّثني فيه غير موضوعها؟

«أولاً،» هكذا بدأت، رأساً، «أرجو أن تعذرني لهذه اللجاجة مني. أمس اضطررت إلى الاتصال بك في منزلك، فلمّا أجابتني زوجتك ـ»

قاطعتها: «السيِّدة التي أجابتك ليست زوجتي، إنها أختي. من أين حصلت على رقم هاتفي؟»

ـ من صديقتي سراب. وأنا في الواقع أريد الحديث إليك بما يخصّ سراب.

ـ هكذا توقَّعت.

ـ كنّا معاً معظم نهار أمس، وتحدَّثنا طويلاً عنك. لست أدري لماذا أصغي إلى قصصها التي لا نهاية لها، مع أنها نادراً ما تصغي إلى تعليقاتي ونصائحي. أو، إن هي أصغت، فإنها لا تلتزم بها.

ـ وماذا أردت أن تخبريني أمس، عند منتصف الليل؟

ـ رسالة وعدتُ بإيصالها إليك، لأن سراب اكتشفت أمس عصراً أن تليفونها في المنزل معطوب، أو مقطوع. فطلبت إليّ أن أتصل بك من منزلنا بعد أن تكون ـ ربّما ـ قد عدت من حفلة عشائك، لأخبرك بأنها في انتظار كلمة منك عن لقائكما اليوم. وهذا هو السبب في أنني عدت واتصلت في منتصف الليل.

ـ شكراً، آنسة رندة، على اهتمامك.

ـ ماذا أقول لها؟ لأننا بعد ساعة سنلتقي للغداء معاً.

ـ قولي لها: المكان نفسه، الوقت نفسه.

ـ في «الأنسام»، في السادسة مساءً؟

ـ يظهر أنك تعرفين التفاصيل.

ـ كلّها. ولو أنني أخشى عليها اندفاعها الزائد.

ـ نعم؟

ـ اسمح لي أن أقول لك إنها كانت تتحدَّث وكأنها لم ترَ رجلاً في حياتها من قبل. وقلت لها بصريح العبارة: اعقلي يا امرأة، وابتعدي عن المشاكل.

ـ أنا لا أرى أية مشاكل. كل ما في الأمر أنها أرادت لقاءً صحفياً معي، رغم أنها أنكرت ذلك فيما بعد. أكاد أجزم أن الذي يهمّها هو مقال تريد أن تكتبه.

ـ ألست تبسّط الأمر أكثر مما يجب، أستاذ نائل؟

ـ هل ترين أنت من كلامها ما هو أكثر من ذلك؟ حتى في تنويع مواضيع الحديث، أشعر أنها تفكّر من خلال أسئلتها الصحفية الموضوعة مسبقاً.

ـ لا، لا. هذيانها أمس لم يكن كلاماً يكتب لمجلّة... على كلّ، أرجو أن أراك يوماً، فالحديث طويل.

ولم يكن مني إلاّ القول بمنتهى الدبلوماسية: «نحن بين الأيادي، يا سيِّدتي... وحتى ذلك الوقت، أو حتى السادسة مساءً اليوم، بلِّغيها تحياتي.»

ما هذه الصداقة الغريبة بين هاتين الفتاتين؟ ما هذا التكاشف المطلق بينهما؟ تبدو رندة أكثر «تعقّلاً»، ولكن لعلّها الغيرة من صاحبتها هي التي تدفعها إلى مثل هذا الموقف. حتى أسلوبها في الكلام يذكّرني بأسلوب سراب. سأنبِّه سراب إلى ضرورة التستّر بشأن الخصوصيات العاطفية. المجتمع قاسٍ، ومنافق. وعلى المرأة أن تصون ما في قلبها حتى عن أعين أقرب الناس إليها. هذا إذا أرادت تجنّب المشاكل. ولكن سراب لا تريد تجنّب المشاكل. سأحدّثها في هذا كلّه اليوم... الساعة السادسة. ما أبعدها! ونائل عمران أمسى الشيخ نائل، يتحدّث في البديهيات ويسدي النصائح الجوفاء... إذا أرادت سراب أن تتبادل خصوصياتها مع رندة، أو غير رندة، فمالي أنا؟ سراب، أنت رائعة، مهما فعلت. ولكان يومٌ آخر يمضي دون أن أراك يوماً مضاعاً آخر، في عمر معظمه ضياع. ويجب أن أشكر لرندة تبليغها الأمانة بهذا الإصرار. وانتبهت إلى أن رندة، كسراب، لم تعطني رقم هاتفها. غير ضروري، أبداً.

* * *

عندما دخلت كافتيريا «الأنسام» لم أصدِّق أنني لم ألتق سراب إلاّ مرّتين، وأن هذه هي المرّة الثالثة فقط. مستحيل. هذه الفتاة أعرفها منذ أشهر. منذ سنين. أعرفها منذ أن ولدتْ. ولكنني لا أعرف شيئاً حقيقياً عنها. كأنها من خلق مراياي العتيدة، تُرى ولا تُلمس، تُسمع ولا تتجسّد. وإذا هي جالسة إلى المائدة نفسها، قرب النافذة نفسها، في انتظاري، فأسرعت إليها لأقول، وأنا أصافحها بيد، وأمسك كتفها بالأخرى وهي ما تزال في معطفها: «كنت للتوّ أقول لنفسي: إنك تُرَيْن ولا تتجسّدين.»

فضحكت قائلة: «هل أنا شبح أمامك؟ المسني! هل خيّبتُك؟»

ـ لا، بل كذّبتني، لحسن الحظ. كذّبتني دائماً، أرجوك. سبقتني هذا المساء؟ ولكنها بالكاد السادسة.

ـ جئت هنا أتسوّق، وانتهيت بأسرع مما ظننت، لأنني لم أجد شيئاً أشتريه.

عندما جلسنا وطلبنا قهوتنا، سألتني عن عشاء البارحة، فحدّثتها عنه، وقلت: «وطلال صالح ذكّرته بوعده.»

ـ وماذا قال؟

ـ يريدنا أن نزوره في مكتبه هذا المساء. بعد قليل من الآن.

ـ المهم، القصيدة؟

ـ القصيدة جاهزة، ويريد أن يقرأها لنا في مكتبه. طلبت إليه أن يعطيني نسخة منها فلا نحتاج إلى الذهاب إلى مكتبه. ولكنه أصرّ على قراءتها بنفسه لك. طبعاً، من أين له زائرة جميلة مثلك تصغي إلى قصائده؟

ـ ولكننا لن نتساهل في حكمنا عليها.

ـ وأنت، هل تنظمين الشعر أيضاً؟

ـ هل يبدو على وجهي أنني أنظم الشعر؟

ـ جداً.

ـ غريب.

ـ نظراتك، يأسك. تمرّدك. رنين ضحكتك. شعرك الهادر. يداك الموسقتان. أناملك ـ

ـ أستاذ نائل، أنت الذي تحاول الشعر الآن!

ـ ولا يأتيني إلاّ النثر. أنتظر أن تكلّمني سراب، فتكلّمني رندة. ماذا أفعل؟

قهقهت، وأتت بإيماءة بديعة من يديها إذ رفعتهما لتغطّي بهما وجهها كأنها، مازحةً، تستر خجلها، وقالت وهي تنظر إليّ من خلال أصابعها: «آسفة، آسفة. تعطّل تلفوننا أمس. وكان لا بدّ من الاتصال بك. وحسدتُ رندة اليوم على أنها تحدَّثت إليك. طبعاً، لن أشجّعها على مكالمتك، إلاّ عند الضرورة. أخاف عليها، وعليك.

ـ هل هي تشبهك؟ صوتها، نبرتها، شيء ما في كلامها، يذكّرني بك. هل هي مثلك جميلة؟

ـ أحياناً أجدها جميلة جداً.

ـ وأحيانا؟

ـ أشبه بالعفريت، عندما تغضب أو تعبس. أتذكُّر العفريت الذي وصفته أنت في «المرايا»؟ له صلة قوية بها... قالت لي اليوم إنها اكتشفت أنك غير متزوّج.

ـ زوجتي سهام فارقت الحياة قبل أربعة أعوام، ولم يكن لها من العمر إلا ست وثلاثون سنة.

بدا لي أنها أجفلت، وتجهَّمت وسقطت خصلات غزيرة من شعرها على وجهها، إذ مدّت يدها عبر فنجان قهوتي، وأمسكت بمعصمي المستقرّ على المائدة، وهي صامتة. ثم همست، وكأن دموعاً تقطر من همسها: «نائل! مسكين!»

هزَّتني اللعينة بتمثيلها، وبجمالها المرعب في تلك اللحظة، وكان عليّ أن أخلص من الهاجس المأتمي الذي حرّكته في نفسي، وقلت: «سراب، حزنك رائع! هل هذه «طريقة» ستانسلافسكي؟ تقمّص العاطفة حتى النخاع؟».

سحبت يدها بغضب: «لِمَ لا أحزن لحزنك؟ أريد أن أحزن معك، وأريد أن أفرح معك، وطريقتي لن يعرفها حتى ستانسلافسكي.»

وشعرت أن الدم يتفجّر فجأةً من رأسي، وقلت هامساً: «أحبّك.»

واقتربت بوجهها، وخصلات شعرها تكاد تغطّي شفتيها، وهمست: «أنا لا أحبّك. أنا أعشقك. أعشقك.»

وعندها نهضتُ وقلت: «يلّا، لنخرج. لنذهب إلى طلال. الوقت أدركنا.»

ومشينا معاً المسافة القصيرة إلى العمارة العالية التي يحتلّ مكتب طلال قسماً من طابقها السابع. وحالما دخلنا المصعد، وانغلق علينا الباب، أخذتها بين ذراعيّ، وقبّلتها بهوج، ورغبة، وعنف. وضغطت على زرّ الرقم ٧، وهي على صدري، وعدنا إلى الهوج والرغبة والعنف لثوانٍ فقط: ما أسرع المصعد في وصوله إلى الطابق الأعلى! وانفتح الباب. ولكن سراب ضغطت عندها زرّ الطابق الأرضي فانغلق الباب، وهبط المصعد، وعدنا إلى التقبيل المجنون، وما كاد المصعد يصل إلى الأرض، وينفتح بابه، حتى ضغطت سراب على زرّ الرقم ٧، وعدنا إلى اللعبة السريعة اللذيذة، لولا أنه توقّف في صعوده هذه المرّة عند الطابق الخامس. فانفصلنا الواحد عن الآخر بشكل أخرق، إذ دخل رجلٌ أدار لنا ظهره، وضغط على زرّ الرقم ٧ أيضاً، وصعدنا معاً إلى حيث لا بدّ من الصعود، وخرجنا صامتين، نكتم ضحكنا، إلى الدهليز الذي ينتهي في طرف منه إلى مكتب الصديق العزيز المحامي طلال صالح، واتجهنا نحوه، بينما اتجه الدخيل البغيض، هادم اللذّات، نحو الطرف الآخر.

حالما فتح عباس الباب، جاءنا طلال راكضاً، واقتادنا إلى مكتبه، وكلّه ترحاب. وكعادته عندما لا يستقبل الموكلين، ترك كرسيّ المنضدة، وجلس معي على الكنبة، بينما جلست سراب في الكرسي الذي بجانبي. ثم عادت فنهضت لكي تخلع معطفها، فساعدتها، وأراد طلال أخذه منها ليعلّقه على مشجب قريب، غير أنها آثرت أن تبقيه وراءها وحولها على الكرسي. ولم يفتني أن صديقي أطال النظر إلى قوامها وهي تتأوّد في حركتها، بفستانها الأخضر، إلى أن جلست، ثم جلسنا جميعاً لنتبادل المجاملات الأولية، ونشعل السكاير. وكان عباس سريعاً في الرجوع إلينا بفناجين القهوة، والانسحاب من الغرفة.

كنا أنا وسراب ما نزال في وهج تلك الإثارة العنيفة القصيرة التي خشيت أن يستشفّها فينا طلال، وخيّل إليّ أن وجه سراب بقي موردًا أكثر من عادته، وأنه يبدو في شفتيها من أثر القبل ذلك الورم الإضافي الطفيف الذي يزيدهما امتلاءً، وإغراءً. غير أنها كانت رابطة الجأش، تبتسم بمقدار، وتتكلّم بمقدار، تاركةً لي التحكّم بالموقف، ولو أنها اعترفت لطلال بأنها هي التي طالبت بإنجاز وعده.

وبغتةً هتفت: «الله! ما أروع هذه الورود!»

ولفت نظري أن طلال، ربّما لأوّل مرّة منذ سنين، كان قد وضع على مكتبه مزهرية رشيقة، مستطيلة العنق، فيها بالضبط خمس وردات حمراء، طويلة السيقان، شديدة النضارة، كأنه اقتطفها للتوّ من حديقة ما.

وقال طلال ضاحكاً، ظاهر السرور: «للمناسبة، للمناسبة.»

وأنا أعرف أن صديقي مع النساء ـ إلّا إذا كنّ يراجعنه في مسائل قضائية ـ خجول جداً في البداية، ويشعر أن لا بدّ له من كأسين قبل أن يرتفع عن دماغه ما كان يسمّيه «بالكابح اللعين». وقال إنه لو كان يعلم أنه سيكتب قصيدة كلّما وعد امرأة بقصيدة لأكثر من الوعود يميناً وشمالاً، عسى أن تُفكّ عقدة لسانه. ولم أستطع إلّا أن أقول: «وهل كل امرأة تعدها هي سراب حتى تُفكّ العقدة العزيزة؟» وأمّلت في أن يأخذ كلامي مأخذ المجاملة، لحضورها معنا، وليس «دليلاً جرمياً» آخر على «جناية» حب سيحاول إثباتها عليّ...

ذهب إلى منضدته، وأخرج من أحد أدراجها ورقتين «فولسكاب»، وعاد بهما إلى مكانه، قائلاً: «والله لم أنته منها إلّا هذا المساء. وقد أغير فيها الكثير فيما بعد.»

قلت: «اتركها على عفويتها يا رجل.»

راح يتمعّن في الصفحة الأولى صامتاً، ثم ضحك: «عنوان القصيدة: «أتحب عينيّ؟». وأرجو، ست سراب، أن تسمحي لي بحرّية الشاعر إذا تغزلّ.»

وتظاهرت سراب بالدهشة: «أهي قصيدة غزل؟»

فتدخّلت: «وماذا نتوقّع من رجل كتب عليه أن يتعامل كل يوم مع المزوّرين، والمحتالين، والقتلة، صاعداً نازلاً في أروقة المحاكم وغرف المحامين؟ لنا الله يا طلال!»

وأضاف هو: «ثمّ إن القصائد العصماء نتركها لأصحابها المحترفين.»

تنحنح قليلاً، وأخذ رشفةً أخرى من قهوته، وبصوتٍ خفيض لا يخلو من قوّة، ولا يخلو كذلك من نبرةٍ مسرحية ربّما جاءته من خبرته في المرافعات أمام القضاة، راح يقرأ ببطء إيقاعي، وهو يرفع عينيه بين حين وآخر بنظرة سريعة إليّ، ثم إلى سراب، ويؤكّد بعض الكلمات تأكيداً يزيد من وقعها:

قالت: أتحبّ عينيّ؟
قلت: أحبُّ خدَّيكِ
كفاكهتينِ،
وشفتيكِ كجمرتينِ

ضاحكتين ـ
قالت: وعيناي، أتحبُّهما؟
قلت: أحبّ نهديكِ
عابثين، متحدِّيين ـ
قالت: سألتك عن عينيّ،
أتحبهما؟
قلت: أحبّ قوامكِ
متثنّياً كصفصافةٍ ـ
فقالت: أف، وعيناي؟
قلت: أحبّ ساقيك
المشوقتين كسيفين،
وكاحليكِ المنوَّرَيْنِ،
وقدميك تلتقيانِ وتفترقان
كحمامتين ـ
فقالت: وعيناي،
ألا تحبّهما؟
فقلت: آهٍ، عيناك؟
أأستطيع التحديق في الشمسِ
إذا سطعتْ،
دعي عنكِ شمسين اثنتين؟
قالت: إذن لمن كحّلتهُما؟
قلت: للدنيا، لكي تُشرقا
حتى في ظلمة الليلِ
على كل من فيها.
قالت: مبالغٌ أنت،
بل أنت ماكرٌ ومخادع.
قلت: في حبّك أنا
ماكرٌ ومخادع.
قالت: إذن فابقَ عندي
وامكرْ بي، وخادع.
قلت: أتصدقينني؟
قالت: وما همّني،
ما دمت تزعم أنك اليومَ
تحبّني؟
فقلت: وكلَّ يومٍ!
قالت: هُسّ، لا تبالغ!
كفاني حّبك اليوم،
وما همّني الغد، أو ما بعد غد ـ
ثم قل لي بربِّك:
أتحبّ عينيّ؟

انتهى من قراءته، وران صمت قام في أثنائه وألقى بالورقتين على المنضدة، ثم عاد إلى مقعده، دون أن ينظر إلى أيّ منا، كأنه يخشى ما سوف نقول. فسألتُ سراب: «ما رأيك؟»

قالت: «جميلة. جميلة جدّاً. تستحق الورود الخمس التي في المزهرية.»

فقال طلال: «أهديها إليك.»

ـ الورود، أم القصيدة؟

ـ الورود والقصيدة.

هتفت بفرح: «قبلت!» وقامت والتقطت مخطوطة القصيدة من على المنضدة.

ثم أضاف طلال: «وكلّما زرتني هنا مع نائل، لك منّي وردة.»

ـ رائع! وإذا لم تتوفّر الوردة، فأنا أرضى بقصيدة.

قهقه طلال صالح: «غالي وطلب رخيص! قبلت!»

وبابتسامة شيطانية التفتت سراب إليّ، وحدّقت في وجهي، وقالت: «أتحبّ عينيّ؟»

فاختطفت الورقتين من يدها، لأراجع النصّ الذي أريد، وقلت:

«أأستطيع التحديق في الشمسِ
إذا سطعت،
دعي عنكِ شمسين اثنتين؟»

* * *

في الطريق، وفي يدها الوردات الخمس، سألتها عن سيارتها فقالت إنها أعطتها عصر اليوم لأختها شذى، كما هو من شأنها أن تفعل بين حين وآخر. وتبيّن أن أختها، الطالبة في سنتها الخامسة في كلية الطب، تعتمد كثيراً على سراب في توصيلها، وأن سراب تفضّل أحياناً أن تأخذ شذى السيارة، وتحرّرها من مسؤوليتها، كما حدث اليوم. وأمّا سيارة أبيها، الدكتور علي عفّان، فنادراً ما يسلّم الأب مفاتيحها لأيٍّ من ابنتيه، ومهنته تحتّم على كلٍ وجود سيارته تحت تصرّفه الخاص طَوال ساعات الليل والنهار.

قلت: «إذن أوصلك بسيارتي.»

قالت: «بل أستقلّ سيارة أجرة.»

ـ مستحيل!

ـ دارنا بعيدة.

ـ أين؟ في القطب الجنوبي؟

ـ لا، أقرب بقليل.

ودفعتها من ذراعها باتجاه الشارع الفرعي الذي أوقفت فيه سيارتي، كما كنا فعلنا كلانا ليلة أمس الأوّل، وهي تقاوم قليلاً، وفمي لصق شعرها أنشق منه عطراً منعشاً في الليل البارد الرطب.

وما إن احتوتنا السيارة، وقد بدأتُ تشغيلها، حتى استأنفنا القبلات العنيفة اللاهثة التي كان المصعد ضنيناً بها علينا. ولست أدري كيف استطاعت سراب، ونحن في تلك الحالة من الإثارة، أن تدلّني على الطريق إلى بيتها ـ الذي بلغناه في حوالي التاسعة. ولا أنكر أنني لم أعرف أين أنا حين بدأت رحلة العودة، وضللت، واجداً نفسي أسوق في طرق سريعة لا معالم فيها أتبيّنها في ذلك الليل، واضطررت أكثر من مرّة إلى التوقّف والسؤال من أناسٍ اتّفق وجودهم على الرصيف، إلى أن وصلت أخيراً إلى منعطف جنين، ومنه توجّهت مباشرة وباطمئنان إلى الدار، وكأنني عدت من نشوة الدرويش الراقص، حيث الامتلاء والتفجّر في اللازمان واللامكان، إلى صحوة الصمت والسكون، وفراغ الزمان والمكان.

بأيّ تفصيل أتحدَّث عن عودة النشوة مع سراب كل يوم من الأيام اللاحقة، رأيتها أم لم أرها، وساعاتي كلها امتلاء وتفجّر، وسراب لصق جلدي وملء عينيّ، نحن الراقصيْن أبداً في دوران غبت فيه مرّة أخرى، وللمرّة الأخيرة، عن الزمان والمكان كليهما(*).

(*) تصدر هذه الرواية هذا الشهر عن «دار الآداب» ـ بيروت.

صدر حديثاً

ديوان الحب العربي

تأليف

محمد سعيد اسبر

إن معظم شعر الحبّ في تراثنا العربي ما يزال دفيناً في بطون المؤلفات والدواوين، مشتّتاً، مجهول الموقع بالنسبة لقطاع واسع من القراء.

وهذا الكتاب يتناول أهم أشعار الحب التي نظمت من بداية العصر الجاهلي حتى نهاية مخضرمي العصرين الأموي والعباسي، من أبيات الشّنفري، حتى أشعار بشّار بن برد.

منشورات دار الآداب